فبشر عباد الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب

المنار

١٣١٥

يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا وما يذكر إلا أولو الألباب

قال عليه الصلاة والسلام : إن للإسلام صوى و «منارا» كمنار الطريق

مصر ٢٩ ذي الحجة ١٣٣١ ه‍ ق ١٠ الخريف الثالث ١٢٩١ ه‍ ش ٢٩ نوفمبر ١٩١٣



تفسير القرآن الحكيم

على الطريقة التي اشتملت عليها دروس الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده رضي الله عنه

(١٦، ١٨) يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ (١٧،٥) قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ (١٨،٥) يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ

بين الله تعالى لرسوله (ص) والمؤمنين أنه أخذ الميثاق على أهل الكتاب من اليهود والنصارى من قبل ، كما أخذه على هذه الامة الآن ، وأنهم نقضوا ميثاقه ، وأضاعوا حظا عظيما مما أوحاه تعالى اليهم ، ولم يقيموا ما حفظوا منه . وهذا البيان من دلائل نبوته (ص) التي هي من معجزات القرآن الكثيرة . ثم ناداهم

بعد ذلك ووجه إليهم الخطاب في إقامة الحجة عليهم بقوله عز وجل :

﴿ يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيراً مما كنتم تخفون من الكتاب ﴾ قيل ان هذه الآية نزلت في قصة إخفاء اليهود حكم رجم الزاني حين تحاكموا الى النبي (ص) في ذلك وسيأتي القصة في هذه السورة . والصواب أن الآية على إطلاقها فكان رسول الله وخاتم النبيين صلى الله عليه وآله وسلم قد بين لأهل الكتاب كثيراً من الاحكام والمسائل التي كانوا يخفونها مما أنزل الله عليهم، منها حكم رجم الزاني وهو مما حفظوه من أحكام التوراة (كما تراه في ٢٢ : ٢٠ ـ ٢٤ من سفر التثنية) ولم يلتزموا العمل به ، وأنكروه أمام النبي (ص) فأقسم على عالمهم ابن صوريا وناشده الله حتى اعترف به ، فهذا مما كانوا يخفونه عند وجوب العمل به أو الفتوى . وكذلك أخفوا صفات النبي (ص) والبشارات به وحرفوها بالحمل على معان أخرى ، اليهود والنصارى في هذا سواء ، وهذا النوع غير ما أضاعوه من كتبهم ونسوه البتة ، [illegible] في التوراة من خبر الحساب والجزاء في الآخرة . وما أظهره [illegible] الرسول مما كانوا يخفونه [illegible] كانت الحجة عليهم فيه أقوى ، لأنهم كانوا يعلمون أنه أمي لم يطلع على شيء من كتبهم، ولهذا آمن من آمن من علماء اليهود المنصفين واعترفوا بعد إيمانهم بما بقي عندهم من البشارات وصفات النبي (ص)

﴿ ويعفو عن كثير ﴾ مما كنتم تخفونه فلا يفضحكم ببيانه . وهذا النص حجة عليهم أيضاً لأنهم يعلمون أنهم يخفون عن المسلمين وعن عامتهم كثيراً من المسائل لئلا يكون حجة عليهم إذ هم لا يعملون به ، كدأب علماء السوء في كل أمة : يكتمون من العلم ما يكون حجة عليهم ، كاشفاً عن سوء حالهم ، أو يحرفونه تحريفاً معنوياً بحمله على غير معناه المراد

﴿ قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين ﴾ في المراد بالنور هنا ثلاثة أقوال: احدها انه النبي (ص) ، ثانيها أنه الاسلام ، ثالثها انه القرآن . ووجه تسمية كل من هذه الثلاثة نوراً هو انها للبصيرة كالنور للبصر ، فلولا النور لما أدرك البصر شيئاً من

المبصرات ، ولولا ماجاء به النبي من القرآن والاسلام لما أدرك ذو البصيرة من أهل الكتاب ولا من غيرهم حقيقة دين الله ، وحقيقة ما طرأ على التوراة والانجيل من ضياع بعضها وتبابه ، وعبث رؤساء الدين بالبعض الآخر باخفاء بعضه وتحريف البعض الآخر ، وأظلوا في ظلمات الجهل والكفر لا يبصرون . والكتاب المبين هو القرآن ، وهو بين في نفسه مبين لما يحتاج اليه الناس لهدايتهم ولولا عطفه على النور لما فسروا النور الا به ، فان الاصل في العطف ان يكون المعطوف غير المعطوف عليه ، ولكن العطف قد يرد للتفسير ، وهو الذي أختاره هنا يتوافق هذه الآية وما بعدها قوله تعالى في أواخر سورة النساء (٤ : ١٧٤ يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا اليكم نورا مبينا ١٧٣ فأما الذين آمنوا بالله واعتصموا به فسيدخلهم في رحمة منه وفضل ويهديهم اليه صراطا مستقيما) وقد قال هنا بعد ذكر هذا النور :

﴿ يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات الى النور باذنه ويهديهم الى صراط مستقيم ﴾ فعبر عن النور والكتاب المبين بضمير المفرد فقال «يهدي به» دون «بهما» فيمكن ان يكون المراد بهما واحدا وهو القرآن . وثم شواهد أخرى غير آية النساء ، كقوله تعالى في المهتدين من أهل الكتاب في سورة الأعراف بعد ذكر بعثة النبي (ص) اليهم (٧ : ١٥٧ فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون) وكقوله تعالى في سورة التغابن (٦٤ : ٨ فآمنوا بالله ورسوله والنور الذي أنزلنا) على ان هذا المعنى لا يتغير اذا قلنا ان النور هنا هو النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فانه هو المظهر الاكمل للقرآن ببيانه له وتخلقه به كما قالت عائشة (رض): كان خلقه القرآن . ولا تعدم لذلك شاهدا من آياته فقد وصفه الله تعالى في سورة الاحزاب بقوله (وسراجا منيرا)

وليرجع القارئ الى تفسيرنا لآيتي النساء اللتين ذكرناهما آنفا فقد بينا في تفسيرهما معنى كون القرآن نورا مبينا بما يغنيه في فهم ما هنا .

وقد ذكر الله هنا لهذا النور ثلاث فوائد (الاولى) انه يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ، أي ان من اتبع منهم ما يرضيه تعالى بالايمان بهذا النور يهديه

— هداية دلالة تصحبها العناية والإعانة — الطرق التي يسلم بها في الدنيا والآخرة من كل مايرديه ويشقيه ، فيقوم في الدنيا بحقوق الله تعالى وحقوق نفسه الروحية والجسدية وحقوق الناس . فيكون متمتعا بالطيبات مجتنبا للخبائث ، تقيا مخلصا ، صالحا مصلحا ، ويكون في الآخرة سعيدا منعما جامعا بين النعيم الحسي الجسدي ، والنعيم الروحي العقلي . وخلاصة هذه الفائدة انه يتبع دينا يجد فيه جميع الطرق الموصلة الى ماتسلم به النفس من شقاء الدنيا والآخرة ، لانه دين السلام والاخلاص لله ولعباده ، دين المساواة والعدل ، والاحسان والفضل

(الفائدة الثانية) الاخراج من ظلمات الوثنية والخرافات والاوهام التي أفسد بها الرؤساء جميع الاديان واستعبدوا أهلها — الى نور التوحيد الخالص الذي يحرر صاحبه من رق رؤساء الدين والدنيا ، فيكون بين الخلق حرا كريما ، وبين يدي الخالق وحده عبدا خاضعا . وقوله « بإذنه » أي بتيسيره ومشيئته وبتوفيقه . والاذن العلم . يقال أذن بالشيء اذا علم به ، وآذنته به أعلمته فأذن ، ويقال أذّن بالتشديد وتأذن بمعنى أعلم غيره ، ويقال أذن له بالشيء اذا أباحه له ، وأذن له أذنا استمع . والظاهر أن الإذن هنا بمعنى العلم أي يخرجهم من الظلمات الى النور بعلمه الذي جعل به هذا القرآن سببا لانقشاع ظلمات الشرك والضلال من نفس من يهتدي به ، واستبدال نور الحق بها ، بمسحه وإزالته لها ، فهو اخراج يجري على سنن الله تعالى في تأثير العقائد الصحيحة في النفوس وإصلاحها إياها — لا انه يحصل بمحض الخلق واستئناف التكوين من غير أن يكون القرآن هو المؤثر فيه

(الفائدة الثالثة) الهداية الى الصراط المستقيم . وهو الطريق الموصل الى المقصد والغاية من الدين في أقرب وقت ، لانه طريق لاعوج فيه ولا انحراف فيطول سالكه أو يضل في سيره ، وهو أن يكون الاعتصام بالقرآن على الوجه الصحيح الذي أنزله الله تعالى لأجله ، كما كان عليه أهل الصدر الاول قبل ظهور الخلاف والتأويل ، بأن تكون عقائده وآدابه وأحكامه مؤثرة في تزكية الانفس وإصلاح القلوب واحسان الاعمال ، وثمرة ذلك سعادة الدنيا والآخرة بحسب سنن الله في خلق الانسان .

(١٩) لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ. قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا؟ (٢٠٥٠) وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ، وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢١٥٠) وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى: نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ.(*) قُلْ: فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ؟ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ. يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ، وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ (٢٢٥٠) يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ، فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ

أقام الله الحجة على أهل الكتاب كافة، ثم بين ما كفر به النصارى خاصة

فقال (لقد كفر الذين قالوا ان الله هو المسيح ابن مريم) قال البيضاوي: «هم الذين قالوا بالاتحاد منهم، وقيل لم يصرح به أحد منهم، ولكن لما زعموا ان فيه لاهوتا وقالوا: لا إله الا واحد — لزمهم ان يكون هو المسيح فنسب اليهم لازم قولهم توضيحا لجهلهم، وتفضيحا لمعتقدهم». وذكر الفخر الرازي في تفسيره ان هذا القول مبني على عقيدة الحلول والاتحاد، وأنه لازم مذهب النصارى وان كانوا لا يقولونه أو لا يقوله أحد منهم. وصرح بعض المفسرين بان هذا المذهب مذهب اليعقوبية منهم خاصة. وذلك ان السابقين من المفسرين والمؤرخين ذكروا ان النصارى ثلاث فرق: اليعقوبية والملكانية والنسطورية. واعلم ان أمثال الزمخشري والبيضاوي

(*) قال علماء المصحف ان كلمتي أبناء وأحباء هنا كتبتا في بعض المصاحف بالألف كما تكتب في الرسم المعتاد وفي بعضها بالواو هكذا « ابنؤا الله واحبؤه »

والرازي لا يعتد بما يعرفون عن النصارى فإنهم لم يقرءوا كتبهم ولم يناظروهم فيها وفي عقائدهم الا قليلا ، وانما يأخذون ما في كتب المسلمين عنهم قضايا مسلمة . ومنها ما هو مشهور فيها من تفسير الآب والابن وروح القدس بأنها الوجود والعلم والحياة ، فالقول بها لا ينافي وحدانية الخالق . وكان يقول مثل هذا بعض علماء النصارى لعلماء المسلمين ، والظاهر ان بعض المتقدمين كان يعتقد هذا ، كما انه يوجد الآن في نصارى أوربة وغيرهم كثير من الموحدين الذين يعتقدون أن المسيح نبي رسول لا إله . ولعله لم يبق في النصارى من يقول بتلك الفلسفة ، لأنهم في كل عصر يغيرون في دينهم ما شاؤا ان يغيروا في فلسفته وغير فلسفته . وكان أكبر تغيير حدث عند هؤلاء المفسرين مذهب (البروتستانت) أي اصلاح النصرانية ، حدث منذ أربع قرون وصار هو السائد في أعظم الامم مدنية وارتقاء كالولايات المتحدة وانكلترة وألمانية . نسف هذا المذهب أكثر التقاليد والخرافات النصرانية التي كانت قبلها ثم استبدل بها تقاليد أخرى صار بها عدة مذاهب في الحقيقة ، ومع هذا نرى هؤلاء المصلحين الذين [illegible] أصلها لم يستطيعوا ان يرجعوها الى التوحيد الصحيح الذي هو دين المسيح وسائر أنبياء بني اسرائيل ورسل الله اجمعين ، فهم لا يزالون يقولون بألوهية المسيح وبالتثليث ويعدون الموحد غير مسيحي ، كما يقول ذلك الفرقتان الكبيرتان الاخريان من فرق النصرانية في هذا العصر — وهم الكاثوليك والارثوذكس — فجميع فرق النصارى هذا العصر تقول ان الله هو المسيح بن مريم ، وان المسيح بن مريم هو الله ، تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا . والظاهر ان النصارى القدماء لم يكونوا متفقين على هذه العقيدة كما قال مفسرونا

قال (الدكتور بوست) في تاريخ الكتاب المقدس عند الكلام على لفظ الجلالة ما نصه :

« طبيعة الله عبارة عن ثلاثة أقانيم متساوية الجوهر : الله الآب ، والله الابن ، والله الروح القدس ، فالى الآب ينتمي الخلق بواسطة الابن ، والى الابن الفداء ، والى الروح القدس التطهير . غير ان الثلاثة أقانيم تتقاسم جميع الاعمال على السواء .

أما مسألة التثليث فغير واضحة في العهد القديم كما هي في العهد الجديد . وقد أشير الى هذا في (تك ص ١) حيث ذكر « الله » و « روح الله » الخ (قابل مز ٣٣ : ويو ١٦ : ١٠ و٣) والحكمة الالهية المشخصة في (أم ص ٨) تقابل الكلمة في (يو ص ١) وربما تشير الى الاقنوم الثاني . وتطلق لموت القدير على كل اقنوم من هذه الاقانيم الثلاثة على حدته » اهـ بحروفه

والحق ان العهد القديم ـ أي كتب الانبياء الذين كانوا قبل المسيح ـ ليس فيها شيء ظاهر ولا خفي في عقيدة التثليث لأنها عقيدة وثنية محضة . ومن أغرب التكلف تفسير الحكمة في امثال سليمان بالكلمة بالمعنى الذي يريدونه وهو وهم لم يخطر في بال سليمان ، ولا المسيح عليهما السلام، وسنرى انهم قالوا : ان استعمال الكلمة بهذه المعنى لم يرد الا في كلام يوحنا ، وقد كان جميع أنبياء الله تعالى موحدين ، أعداء الوثنية والوثنيين ، وانما يصح أن يقال ان التوحيد ظاهر جلي في العهد الجديد أيضا والتثليث [illegible] فإن العقيدة التي يدعو اليها دعاة النصرانية ، والعبارات التي [illegible] لانعلم كلها من العهد الجديد ، بل هي [illegible] في تفسيرها وشرحها كما يهوون ، على خلاف شديد فيها بين متقدميهم ومتأخريهم

والعمدة عندهم في هذه العقيدة أول عبارة من انجيل يوحنا وهي « في البدء كانت الكلمة ، والكلمة كان عند الله ، والله هو الكلمة » وقد أطلقوا لفظ الكلمة على المسيح ، فصار معنى الفقرة الثالثة من عبارة انجيل يوحنا : والله هو المسيح بن مريم . وهذا عين ما أسنده القرآن اليهم ، فكيف يقول البيضاوي والرازي انه أسند اليهم لازم مذهبهم ؟

قال بوست في قاموسه : « يقصد بالكلمة السيد المسيح ولم ترد هذه اللفظة بهذا المعنى الا في مؤلفات يوحنا (١ : ١ ـ ١٤ و١ يو ١ : ١ ورؤ ١٩ : ١٣) وقد استعمل الفيلسوف (فيلو) لفظة « الكلمة » غير انه يقصد بها غير ما قصد يوحنا » اهـ

أقول قد بينا في تفسير « فنسوا حظا مما ذكروا به » انهم قالوا ان يوحنا ما كتب انجيله في آخر عمره الا إجابة لاقتراح من ألحوا عليه بذلك لعلة التي ذكروها .

فلولا هذا الاقتراح والالحاح لما كتب ، ولو لم يكتب لم تعرف هذه العقيدة — فثبت ان هذه العقيدة لم يذكرها المسيح نفسه في كلامه ولا دعا اليها أحد من تلاميذه الذين انتشروا في البلاد للدعوة الى انجيله ، ولم يعرفها أحد الا في العشر العاشر من القرن الأول الذي كتب فيه يوحنا انجيله هذا ان صح ان يوحنا الحواري هو الذي كتبه — ولن يصح — ولا يعقل ان يسكت المسيح وجميع تلاميذه عن هذه العقيدة اذا كانت هي أصل الدين كما تزعم النصارى ، بل الذي تتوفر عليه الدواعي ان يقررها المسيح نفسه في كلامه ، ويجعلها تلاميذه أول ما يدعون اليه ويكررونه في أقوالهم ورسائلهم .

ولا يغرنك ما أشار اليه (بوست) من الشواهد عن رسالة يوحنا ورؤياه فتظن أن هنالك نصا أو نصوصا في اثبات هذه العقيدة ، كلا ! ان الشاهد الذي عزاه الى أول رسالته الأولى هو: « الذي كان من البدء ، الذي سمعناه ، الذي رأيناه بعيوننا ، الذي شاهدناه ولمسته أيدينا من جهة كلمة الحياة » فكلمة الحياة لا تفيد هذه العقيدة الا بتحكم ، وأما الشاهد الذي عزاه الى الرؤيا فهو :

« ١١ ثم رأيت السماء مفتوحة واذا فرس أبيض والجالس عليه يدعى أمينا وصادقا وبالعدل يحكم ويحارب ١٢ وعيناه كلهيب من نار وعلى رأسه تيجان كثيرة وله اسم مكتوب ليس أحد يعرفه الا هو ١٣ وهو متسربل بثوب مغموس بدم ويدعى اسمه كلمة الله ١٤ والاجناد الذين في السماء كانوا يتبعونه على خيل بيض لابسين بزا أبيض نقيا ١٥ ومن فمه يخرج سيف ماض لكي يضرب به الأمم وهو سيرعاهم بعصا من حديد » فانت ترى ان هذه الاوصاف لاتنطبق على المسيح وانما تنطبق على اخيه محمد عليهما الصلاة والسلام، فمن اسمائه الصادق والأمين، و بالعدل كان يحكم ويحارب الخ ولم يكن المسيح شيء من هذه الصفات . ولفظ « كلمة الله » هنا لا يفيد معنى تلك العقيدة ولا يشير اليها لأن كل شيء وجد بكلمة الله وهي كلمة التكوين (انما أمره اذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون)

وأما الدليل على كون هذه العقيدة وثنية فهو يظهر لك جليا فيما كتبناه في تفسير قوله تعالى من هذا الجزء (٤ : ١٦٩ يا أهل الكتاب لا تغلو في دينكم —

الى قوله -- ولا تقولوا ثلاثة) وذلك ان زعمهم « ان الله هو المسيح بن مريم » جزء من عقيدة التثليث المأخوذة عن قدماء المصريين والبراهمة والبوذيين وغيرهم من وثنيي الشرق والغرب. وقد أوردنا هنالك من شواهد كتب التاريخ وآثار الاولين ماعلم به قطعا ان النصارى أخذوا هذه العقيدة عنهم . وسنعود الى ذكرها عند تفسير قوله تعالى من هذه السورة « لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة » –

قال تعالى في تبكيت هؤلاء الناس ورد زعمهم :

﴿ قل فمن يملك من الله شيئا ان أراد ان يهلك المسيح بن مريم وامه ومن في الارض جميعا ﴾ أي قل أيها الرسول لهؤلاء النصارى المتجرئين على مقام الالوهية بهذا الزعم الباطل : من يملك من أمر الله وارادته شيئا يدفع به الهلاك والاعدام عن المسيح وامه وعن سائر أهل الارض ان أراد عز وجل ان يهلكهم ويبيدهم ؟ والاستفهام للانكار والتوبيخ والتجهيل ، أي إن المسيح وامه من المخلوقات التي هي قابلة لطروء الهلاك والفناء عليها كسائر أهل الارض، فاذا أراد الله ان يهلكهما ويهلك أهل الارض جميعا لا يوجد أحد يستطيع ان يرد ارادته ، لانه هو المالك لامر الوجود كله ، ولا يملك أحد من أمره شيئا يستطيع به ان يصرفه عن عمل يريده ، أو يحمله على أمر لا يريده ، أو يستقل بعمل دونه . تقول العرب : ملك فلان على فلان أمره . اذا استولى عليه فصار لا يستطيع ان ينفذ أمرا ولا ان يفعل شيئا الا به أو باذنه . قال ابن دريد في وصف الخمرة التي لم يكسر المزج حدتها ولم تبطل النار تأثيرها :

لم يملك الماء عليها أمرها ● ولم يدنسها الضرام المحتضى

وقوله تعالى « فمن يملك من الله شيئا » أبلغ من مثل هذا القول لأنه نفى ان يملك أحد بعض أمره تعالى فضلا عن ملك أمره كله . فصار المعنى انه لا يوجد أحد يستطيع ان يرد أمره أو يحوله عن ارادته بوجه ما ولو الدعاء والشفاعة ، اذ لا يستطيع أحد ان يشفع عنده الا باذنه لمن ارتضاه، فالامر في ذلك كله له وحده عز وجل . ويدخل في عموم ذلك المسيح نفسه وغيره من الانبياء ، وكذا الملائكة

عليهم السلام ، فاذا كان المسيح لا يستطيع ان يدفع عن نفسه الهلاك او عن والدته كما انه لا يستطيع غيره ان يدفعه عنه اذا أراد الله تعالى انزاله به ، فكيف يكون هو الله الذي بيده ملكوت كل شيء ؟

ومن غريب تهافت هؤلاء الناس انهم قالوا ان شر نوع من أنواع الاهلاك وهو الصلب نزل بالمسيح ـ الذي هو الكلمة ، والله هو الكلمة بزعمهم ـ ولم يستطع ان يدفعه عن نفسه ، وأنه استغاث بربه خائفا وجلا ضارعا خاضعا ليصرف عنه ذلك الكأس فلم يجبه الى ما طلب !! وهم يكابرون انفسهم في دفع هذا التهافت بمثل قولهم: انه كان له طبيعتان ومشيئتان ، ثنتان منها إلهيتان وثنتان بشريتان ، وليت شعري اذا كان هذا ممكنا فهل يمكن معه ان يجهل المسيح بطبيعته البشرية طبيعته الالهية فيعترض عليها بمثل قولهم عنه في انجيل متى (٢٧ : ٤٦ الهي الهي لماذا تركتني) و يستشهدها غير عالم بما يمكن وما لا يمكن لها بمثل ما قالوه عنه في انجيل متى (٢٦ : ٣٩ ثم تقدم قليلا وخر على وجهه وكان يصلي قائلا : يا أبتاه ان أمكن فلتعبر عني هذه الكأس ـ الى أن قال ـ ٤٢ فمضى أيضا ثانية وصلى قائلا : إن لم يمكن ان تعبر عني هذه الكأس الا ان أشربها فلتكن مشيئتك) ؟ كلا إن هذا أعظم حجة عليهم مصدقة لحجة القرآن ، فان مشيئة الله لا يردها شيء .

ثم ان الطبيعة البشرية هي التي خاطبت البشر فاذا كان هذا شأنها ، لا يقبل قولها ولا يوثق بتعليمها ، فكيف تجعل مع الطبيعة الاخرى شيئا واحدا ، يسمى ربا وإلها ويعبد ، والناس ما رأوا الا الطبيعة البشرية ، ولا عرفوا غيرها ولا سمعوا الا كلامها ولا رأوا الا أفعالها ؟ والنكتة في عطف من في الارض جميعا على المسيح وامه التذكير بأنهما من جنس البشر الذين في الأرض وما جاز على أحد المثلين جاز على الآخر . واناجيلهم تعترف بأن المسيح كان كغيره في الشؤون البشرية كما سيأتي في تفسير « ما المسيح بن مريم الا رسول » الآية

(ولله ملك السموات والارض وما بينهما) الظاهر ان هذه الجملة حالية أي فمن يملك من الله شيئا ان أراد اهلاك المسيح وامه واهل الارض قاطبة والحال انه هو صاحب الملك المطلق والتصرف الاستقلالي الكامل في السموات والارض

وما بينهما ، أي ما بين اجرام واجزاء هذين العالمين العلوي والسفلي بالنسبة اليكم .

وهذا الملك والتصرف مما تعترف به النصارى ، ولكنهم زعموا ان صاحب هذا الملك العظيم والتصرف المطلق والكمال الاعلى قد عرض له بعد خلق آدم الذي ندم وتأسف من كل قلبه أنه خلقه ـ أمر عظيم ، وهو ان آدم عصاه فاقتضى عدله ان يعذبه هو وذريته ! واقتضت رحمته أن لا يعذبهم ، فوقع التناقض والتعارض بين مقتضى صفاته فلم يجد لذلك مخرجا يجمع به بين مقتضى العدل والرحمة ، الا أن يحل في بطن امرأة من ذرية آدم ويتكون جنينا فيه فتلده انسانا كاملا وإلها كاملا ! ثم يعرض نفسه لشر قتلة لعن صاحبها على لسان رسله وهي الصلب ، فداء لآدم وذريته ، وجمعا بين عدله بتعذيب واحد منهم هو وحده البريء من الذنب ، ورحمة الآخرين إن آمنوا بهذه العقيدة ولو بغير عقل ، ثم انه لم يتم له هذا الجمع لأن اكثر البشر لم يؤمنوا بها !! فهو لا بد أن يعذبهم في الآخرة . على أنه عذب كثيرا من الناس بمثل ما عذبه به وبغير ذلك ومنهم المؤمنون بتلك العقيدة ، فلماذا لم يكن تعذيبهم في الدنيا فداء لهم ؟ وهل هذا هو الجمع بين العدل والرحمة ؟!

ولما كانت شبهتهم على كون المسيح بشرا إلها وانسانا [illegible] هي أنه خلق على غير السنة العامة في خلق البشر ، وانه عمل اعمالا غريبة لا تصدر عن عامة البشر ، قال تعالى في رد هذه الشبهة (يخلق ما يشاء) أي لما كان له ملك السموات والأرض وما بينهما ، كان من المعقول أن يكون خلقه الاشياء تابعا لمشيئته ، فقد يخلق بعض الاحياء من مادة لا توصف بذكورة ولا انوثة كأصول أنواع الحيوان ، ومنها ابو البشر عليه السلام ، وقد يخلق بعضها من ذكر فقط أو انثى فقط ، وقد يخلق بعضها بين ذكر وانثى ، ولا يدل شكل الخلق ولا سببه ولا امتياز بعض المخلوقات على بعض على حلول الاله الخالق فيها ، بل هذا لا يعقل ولا يمكن . فامتياز الارض على عطارد أو زحل بوجود الاحياء فيها من البشر وغيرهم لا يعد دليلا على كون الارض إلها لذلك الكوكب الذي فضلته بهذه المزية . كذلك سنة الله في خلق المسيح ومزاياه لا تدل على كونه إلها أو ربا لمن لم توجد فيهم هذه المزايا ، لان المزايا في الخلق كلها بمشيئة الخالق ، فلا يخرج بها المخلوق عن كونه مخلوقا نسبته الى

خالقه كنسبة سائر المخلوقات اليه تعالى وأما الامتياز ببعض الافعال الغريبة فهو معهود من البشر أيضا، ونقل ذلك عن جميع الامم والملل، وقد ادعت الامم الوثنية لأصحابها الالوهية والربوبية، وأجمع الانبياء من بني اسرائيل وغيرهم على توحيد الله تعالى وسموا تلك الغرائب بالآيات الالهية، وقالوا ان الله تعالى قد يؤيد بها أنبياءه ورسله. فاذا خرجتم أيها النصارى عن سنة النبيين والمرسلين، واتبعتم سنة الوثنيين كقدماء الهنود والمصريين الذين جعلوا غرابة خلق مقدسيهم وغرابة بعض افعالهم، دليلا على ألوهيتهم وربوبيتهم؟ ﴿ والله على كل شيء قدير ﴾ فكل ما تعلقت به مشيئته ينفذ بقدرته، وانما يعد بعض خلقه غريبا بالنسبة الى علم البشر الناقص لا بالنسبة اليه تعالى. وكذلك غرابة بعض افعالهم، تكون من علم كسبي يجهله غيرهم، أو قوة نفسية لم يبلغها سواهم، أو تأييد رباني لا صنع لهم فيه ولا تأثير.

روى ابن اسحق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس قال: أتى رسول الله (ص) ابن أبي وبحري بن عمرو وشاس بن عدي فكلمهم وكلموه ودعاهم الى الله وحذرهم نقمته فقالوا: ما تخوفنا يا محمد؟ نحن والله أبناء الله وأحباؤه، كقول النصارى، فأنزل الله فيهم ﴿ وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه ﴾ الى آخر الآية. ومن قرأ كتب اليهود والنصارى رأى فيها لقب « ابن الله » قد أطلق على آدم. (انظر انجيل لوقا ٣ : ٣٨) وعلى يعقوب وداود مع لقب البكر (انظر سفر الخروج ٤ : ٢٢ و٢٣ والمزمور ٩٨ : ٢٦ و٢٧) وكذا على افرايم (انظر نبوة ارمياء ٣١ : ٩) وعلى المسيح عليهم السلام ولكن بدون لقب البكر . وأطلق مجموعا على الملائكة وعلى المؤمنين الصالحين . وهذا الاستعمال كثير في العهد الجديد . ومنه ما حكاه متى في وعظ المسيح على الجبل (٥ : ٩ طوبى لصانعي السلام لأنهم أبناء الله يدعون) وقال بولس في رسالته الى أهل رومية (٨ : ١٤ لأن كل الذين ينقادون بروح الله فأولئك هم أبناء الله) وجاء في سياق المناظرة بين المسيح واليهود من انجيل يوحنا ما نصه (٨ : ٤١ أنتم تعملون أعمال أبيكم، فقالوا له اننا لم نولد من زنا لنا أب واحد وهو الله ٤٢ فقال لهم يسوع لو كان الله أباكم لكنتم تحبونني — الى ان قال — ٤٤

أنتم من أب هو ابليس وشهوات أبيكم تريدون ان تعملوا) وفي هذا المعنى ماجاء في الرسالة الاولى من رسالتي يوحنا (٣ : ٩ كل من هو مولود من الله لا يفعل خطيئة لان زرعه يثبت فيه ، ولا يستطيع ان يخطئ لانه مولود من الله ١٠ بهذا أولاد الله ظاهرون وأولاد ابليس) فعلم من هذه النصوص وأشباهها ان لفظ « ابن الله » يستعمل في كتب القوم بمعنى حبيب الله الذي يعامله الله معاملة الاب لابنه من الرحمة والاحسان والتكريم . فعطف أحباء الله على أبناء الله للتفسير والايضاح ، وانما تحكم النصارى بهذا اللقب فجعلوه بمعنى الابن الحقيقي بالنسبة الى المسيح وبالمعنى المجازي بالنسبة الى غيره من الصالحين . ومعنى الابن الحقيقي محال على الله تعالى لانه عبارة عن الولد الذي ينشأ من تلقيح الرجل بمائه لبعض مافي رحم المرأة من البيض . فالمعنى المجازي متعين كما ترى وسنوضحه في تفسير (وقالت النصارى المسيح ابن الله) ولما كان ما ذكرناه مؤيدا بالشواهد هو المعنى المراد لاولئك المتبجحين من اليهود والنصارى حسن رد الله تعالى عليهم بقوله لنبيه محمد (ص) :

﴿ قل فلم يعذبكم بذنوبكم بل أنتم بشر ممن خلق يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء ﴾ أي قل لهم أيها الرسول : اذا كان الامر كما زعمتم فلم يعذبكم الله تعالى بذنوبكم في الدنيا كما تعلمون من تاريخكم الماضي وكما ترون في تاريخكم الحاضر . ومن هذا العذاب لليهود ما كان من تخريب الوثنيين لمسجدهم الاكبر ولبلادهم المرة بعد المرة ، ومن ازالة ملكهم من الارض ، وللنصارى ما نكل به بعضهم ببعض وهو شر من تنكيل الوثنيين والنصارى باليهود . أي ان الاب لا يعذب ابنه والمحب لا يعذب حبيبه ، فلستم اذا أبناء الله ولا أحباءه بل أنتم بشر من جملة من خلق الله تعالى ، وهو عز وجل الحكم العدل لا يحابي أحدا ، وانما يغفر لمن يعلم انه مستحق المغفرة ، ويعذب من يعلم أنه مستحق للعذاب ، فهو يجزيكم بأعمالكم ، كما يجزي سائر البشر أمثالكم ، فارجعوا عن غروركم بأنفسكم وسلفكم وكتبكم فانما العبرة بالايمان الصحيح والاعمال الصالحات ، لا بمن سلف من الآباء والامهات

﴿ ولله ملك السموات والارض وما بينهما واليه المصير ﴾ أثبت الله تعالى في

هذه الآية مثل ما أثبت في التي قبلها من أن له ملك السموات والأرض وما بين أجرامها وأجزائها من المخلوقات ، الا أنه ختم تلك بكونه على كل شيء قديرا ، لان المقام مقام القدرة في الخلق ، وامتياز بعضه على بعض ، وختم هذه ببيان كون المرجع والمصير اليه . لأن المقام مقام الجزاء على الاعمال ، وذلك ان السموات والارض ومن فيهما و بين عالميها نسبتها اليه تعالى واحدة ، وهي انه الخالق المالك الرب ذو التصرف المطلق في كل شيء بمقتضى العلم والحكمة ، والعدل والفضل ، وهي المخلوقات المملوكة ، وجميع من يعقل فيها من الانس والجن والملائكة عبيد له لا أبناء ولا بنات (١٩ : ٩٤ ان كل من في السموات والارض الا آتي الرحمن عبدا) وفي ختمها بقوله « واليه المصير » اشعار بأنه سيعذبهم في الآخرة على هذا الكفر والغرور والدعاوي الباطلة ، فيعلمون عند ما يصيرون اليه أنهم عبيد آبقون مجازون ، لا ابناء ولا أحباء محابون

وقد استشكل بعضهم كون تعذيبهم حجة على بطلان دعواهم أنهم أبناء الله وأحباؤه ، لأنه ان أريد به عذاب الآخرة لاتقوم به الحجة عليهم لانكارهم إياه ، وان أريد به عذاب الدنيا فلا يرد عليهم لأنه غير قاصر على أعدائه لأن النبي (ص) وأمته لم يخلوا من محن الدنيا كالذي حصل في وقعة احد وقتل الحسن والحسين عليهما السلام ، ونحن نعتقد أن الذين ابتلوا بهذه المحن من أحباء الله تعالى . وأجاب الرازي عن هذا الاشكال بثلاثة أجوبة حاصل الأول اننا نعتقد ان النبي (ص) وخيار أمته من أحباء الله تعالى ولا ندعي أنهم أبناء الله تعالى . وحاصل الثاني ان المراد عذاب الآخرة وقد اعترف به اليهود اذ قالوا « لن تمسنا النار الا اياما معدودة » وحاصل الثالث ان المراد به المسخ الذي وقع بعض اليهود قبل الاسلام أضيف الى المخاطبين لأنهم من جنسهم . قال الرازي بعد شرح الأجوبة بعبارة أخرى : وهذا الجواب أولى لأنه تعالى لم يكن يأمر رسوله عليه الصلاة والسلام أن يحتج عليهم بشيء لم يدخل بعد في الوجود ، فانهم يقولون لا نسلم أنه تعالى يعذبنا ، بل الأولى ان يحتج عليهم بشيء قد وجد حتى يكون الاستدلال قويا متينا . اه

ونحن نقول ان هذا الاخير أضعفها وانهم لا يعترفون به أيضا ، وانه لا حجة فيه ولا في الثاني على النصارى فيكون تسليما لهم أو إقرارا على دعوى انهم أبناء

الله ، وهم الذين يكثرون هذه الدعوى ويتبجحون بها ، ثم ان التعبير بالمضارع « يعذبكم » ينفي ان يكون المراد تعذيبا خاصا بطائفة وقع في الزمن الماضي . وأقوى أجوبته الأول ولكنه لم يفطن لما فيه من القوة ولم يبينه بيانا تاما ، على انه لم يحرر أصل الدعوى فيهتدي الى تحرير الجواب . والصواب ان هذا الاشكال لا يرد على الاسلام والقرآن ، واليك البيان الصحيح الذي يتضائل بمحنى يدخل في خبر كان :

كان اليهود يعتقدون انهم شعب الله الخاص مميزهم لذاتهم على جميع البشر فلا يمكن أن يساويهم شعب آخر عنده وان كان اصح منهم ايمانا وأصلح عملا ، وانهم لا يكونون تابعين لغيرهم في الدين ، فلا يصح ان يتبعوا محمدا (ص) لأنه عربي لا اسرائيلي . والفاضل لا يتبع المفضول بزعمهم . ولا يمكن ان يؤاخذهم الله على الكفر به لأنهم شعبه الخاص المحبوب ، فهو لا يعاملهم الا معاملة الوالد لأبنائه الاعزاء والمحب لحبيبه الخاص . وأما النصارى فقد أربوا عليهم في الغرور ، وان كان النبي الذي يدعون اتباعه قد جاهد غرور اليهود جهادا عظيما ، فهم يدعون ان المسيح قد فداهم بدمه [illegible] المسيح به الحقيقي ، ويخاطبون الله تعالى دائما بلقب الأب [illegible] في الزمن بعثة النبي (ص) اشد من اليهود فسادا وافسادا وفسقا وفجورا وظلما وعدوانا بشهادة مؤرخي الامم كلها منهم ومن غيرهم ، ومع هذا كله كانوا يدعون أنهم أبناء الله وأحباؤه ، وانهم غير محتاجين الى اصلاح في دينهم ولا دنياهم ، ولهذا رفضوا مادعاهم اليه النبي (ص) من التوحيد الخالص والفضائل الصحيحة والاعمال الصالحة ، وردوا ماجاءهم به من كون مرضاة الله تعالى ومثوبته لاتنالان الا بتزكية النفس وإصلاحها بالتوحيد والعمل .

هذا حاصل ما كان عليه اليهود والنصارى من الغرور بدينهم وبأنفسهم وبأنبيائهم الذين تركوا هديهم وضلوا طريقهم ، وقد عبر الكتاب الحكيم عن ذلك هنا بأوجز لفظ واخصره وهو قولهم «نحن أبناء الله واحباؤه» وحاصل رده عليهم : انكم من نوع البشر الذي هو من جنس مخلوقات الله تعالى ، وانه ليس لكم ولا لغيركم من طوائف البشر امتياز ذاتي خاص ولا نسبة ذاتية اليه تعالى ، لأن جميع خلقه بالنسبة اليه سواء ، وقد مضت سنته في البشر بأن يعذبهم في الدنيا بما كسبت

أيديهم ، ويعفو عن كثير من أعمالهم و يغفرها فلا يعجل لهم العذاب عليها . وذلك بحسب مشيئته ، المطابقة لعلمه وعدله وحكمته ، فاذا كان لكم امتياز ذاتي على جميع البشر فلم يعذبكم بذنوبكم في هذه الدنيا كما يعذب غيركم بذنوبهم ؟ وأنتم تعلمون هذا علم اليقين من أنفسكم ومن تاريخكم . والمضارع « يعذبكم » هنا لبيان الشأن والسنة في معاملتهم ، فهو يدل على ان هذا التعذيب ثابت في كل زمان متى وقع سببه ، ووجدت علته . والكلام في سنة الله في الأمم والشعوب ، وتاريخهم فيه كتاريخ غيرهم قبل البعثة وفي زمنها و بعدها : ما عذبت أمة من الامم بشيء الا وعذبوا بمثله ، فلو كانوا ابناء الله واحباءه ولو مجازا بحسب ماينا بالشواهد من كتبهم ، لما حل بهم ما حل بغيرهم ، أولم تكن لهم ذنوب يعذبون بها كما قال (١ يو ٣ : ٩)

اذا فقهت هذا ظهر لك ان إشكال الرازي غير وارد أصلا ، فان الكلام في الامم والشعوب وابطال دعوى أن يكون شعب منها عزيزا عند الله بذاته ، لا يجري عليه سننه في سائر خلقه ، والنبي (ص) لم يدع أن [illegible] مثل هذا الامتياز ، وان كل من انتمى اليها كان من [illegible] [illegible] الاعمال [illegible] لم تغلب خيارهم اذا في غزوة أحد [illegible] هذا ما أنزله الله تعالى في شأن غزوة أحد من الآيات ، فقد بين فيها أن ما أصاب المسلمين انما أصابهم بذنوبهم ، إذ خالف الرماة أمر نبيهم وقائدهم ، وتنازعوا واختلفوا في أمرهم ، وان الايام دول ، والعاقبة للمتقين ، فهم الذين يتعظون بالحوادث فلا يعودون الى مثل ما عوقبوا به . وقد قال تعالى في فاتحة سياق هذه القصة (٣ : ١٣٧ قد خلت من قبلكم سنن فسيروا في الارض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين ١٣٨ هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين ١٣٩ ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الاعلون ان كنتم مؤمنين ١٤٠ إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله وتلك الايام نداولها بين الناس وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين ١٤١ وليمحص الله الذين آمنوا و يمحق الكافرين) ثم قال (١٥٢ ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم باذنه ، حتى اذا فشلتم وتنازعتم في الامر وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون) الخ آية ١٥٥ ثم قال (١٦٥ أو لما اصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا ؟ قل هو من عند أنفسكم) الخ

فأنت ترى أن هذه الآيات تبين لنا سنته تعالى في البشر ، وان الجزاء انما يكون على الاعمال ، لا على الاسماء والالقاب ، وهذا هو الذي يصدقه الوجود وتشهد به تواريخ جميع الاقوام والاجيال . فغاية الامر ان شأن أهل الايمان الصحيح والدين القيم أن يكونوا أعرف بسنن الله تعالى في خلقه ، فتكون ذنوبهم التي يعاقبون بها موعظة يتعظون بها ، وتمحيصا يكمل نفوسهم بالعبر وبلى شأنها ، وان يكونوا من المتقين لكل ما جعله الله سببا للخيبة والخسران ، كالظلم والبغي والعدوان ، والتنازع والتفرق والغرور وعدم النظام . وبهذا يكونون من أحباء الله تعالى ويكون ما حل بهم من قبيل تربية الوالد لولده ، ولا يحسن أن يسمى تعذيبا ، لان مرارة الدواء الذي يشفيك من السقم ، ليس كالسوط الذي لا يصيبك منه الا الألم .

ومن راجع تفسير هذه الآيات في الجزء الرابع من تفسيرنا هذا يتجلى له الحق في ذلك تمام التجلي . ولكن المسلمين لم ينتفعوا بهذا البيان ، فيتقوا غرور أهل الكتاب ، بل اتبعوا سننهم شبرا بشبر وذراعا بذراع ، الى ان آل الامر الى ضد ما كان ، فترك جمهور أهل الكتاب ذلك الغرور بدينهم ، واهتدوا بسنن الله في الامم والدول التي [illegible] سياسة ملكهم ، وكان آخر حوادث غرور دولهم الكبرى غرور دولة الروسية ، في حربها مع دولة اليابان الوثنية ، على انه لم يكن غرورا دينيا محضا ، بل كان ممزوجا بالاستعداد الدنيوي مزجا . وبقي من اتبعوا سننهم من المسلمين ، ثابتين على تقليد أولئك المخذولين ، وفتن بعضهم بالمتأخرين المعتبرين ، ولكنهم ما احتذوا مثالهم في أمر الدنيا ولا رجعوا في مثله الى هدي الدين ، (وما يتذكر الا من ينيب)

أقام الله الحجة على أهل الكتاب ودحض شبههم التي غرتهم في دينهم ، فحسن بعد هذا ان يذكرهم بحجته عليهم يوم القيامة اذا هم أصروا على غرورهم وضلالهم ، فقال :

﴿ يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم على فترة من الرسل ﴾ أي قد جاءكم رسولنا المبشر به في كتبكم ، المنتظر في اعتقادكم ، فان الله أخبركم على لسان

موسى انه سيقيم نبيا من بني إسماعيل أخوتكم ، وعلى لسان عيسى بن مريم بانه سيجيء بعده البارقليط روح الحق الذي يعلمكم كل شيء ، ولا تزال هذه البشارات في كتبكم ، وان حرفتموها بسوء فهم أو بسوء قصد منكم ، وهو النبي الكامل المعهود الذي سأل أجدادكم عنه يحيى (يوحنا) عليه السلام ، ففي أوائل الانجيل الرابع ان اليهود أرسلوا كهنة ولاويين فسألوا يوحنا : أأنت المسيح ؟ قال لا . أأنت ايليا ؟ قال لا . أأنت النبي ؟ قال لا وهذا هو الرسول محمد النبي العربي الامي الذي لم يتعلم شيئا ، وهو يبين لكم على فترة أي انقطاع من الرسل ، وطول عهد بالوحي ، جميع ما تحتاجون اليه من أمر دينكم ، وما يصلح به أمر دنياكم ، من العقائد الحق التي أفسدتها عليكم نزغات الوثنية ، والاخلاق والآداب الصحيحة التي أفسدها عليكم الافراط والتفريط في الامور المادية والروحية ، والعبادات والاحكام التي تصلح بها أموركم الشخصية والاجتماعية - فترك التصريح بمفعول «يبين لكم» لإفادة العموم - ويدخل فيه ما بينه لكم مما كنتم تخفون من الكتاب لإقامة الحجة عليكم . ولو لم يكن رسولا من عند الله تعالى لما [illegible] ولا [illegible] تقاسمت [illegible] علوم أحباركم ورهبانكم ، وحكامكم وساستكم ، بعث رسولنا محمد يبين لكم كل هذا ليقطع معذرتكم ويمنعكم يوم القيامة (أن تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير) يبشرنا بحسن عاقبة المؤمنين الصالحين المتقين ، وينذرنا ويخوفنا سوء عاقبة المفسدين الضالين المغرورين .

(فقد جاءكم بشير ونذير) يبين لكم ان أمر النجاة والخلاص ، والسعادة الابدية في دار القرار ، ليس منوطا بأمانيكم التي تتمنونها ، وأوهامكم التي تغترون بها ، بل هو منوط بالايمان والاعمال ، وان الله تعالى لا يحابي أحدا من الناس ، قال تعالى (٤ : ١٢٢ ليس بأمانيكم ولا أماني أهل الكتاب ، من يعمل سوءا يجز به ولا يجد له من الله وليا ولا نصيرا ١٢٣:٤ ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو انثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيرا) (والله على كل شيء قدير) فلا يعجزه أن يريكم صدق نبيه بنصر دعوته واعلاء كلمته عليكم في الدنيا ، لتقيسوا على ذلك ان عقلتم ما يكون من الامر في الدار الآخرة .

روى أبناء اسحق وجرير والمنذر وابي حاتم والبيهقي في الدلائل عن ابن

عباس قال: دعا رسول الله (ص) يهود الى الاسلام فرغبهم فيه وحذرهم فأبوا عليه. فقال لهم معاذ بن جبل وسعد بن عبادة وعقبة بن وهب: يامعشر يهود اتقوا الله، فوالله انكم لتعلمون انه رسول الله، لقد كنتم تذكرونه لنا قبل مبعثه، وتصفونه لنا بصفته. فقال رافع بن حريملة ووهب بن يهوذا: ما قلنا لكم هذا وما انزل الله من كتاب من بعد موسى ولا ارسل بشيرا ولا نذيرا بعده. فانزل الله الآية. اي انزلها في هذا السياق متضمنة للرد عليهم

ومن مباحث اللفظ في الآية أن الفترة من فتر الشيء، اذا سكن أو زالت حدته. وقال الراغب: الفتور سكون بعد حدة، ولين بعد شدة، وضعف بعد قوة، وذكر الآية. والمراد بها هنا انقطاع الوحي وظهور الرسل عدة قرون. وقوله «أن تقولوا» تقدم مثله، ومنه «يبين الله لكم أن تضلوا» في آخر سورة النساء. وتقدم وجه اعرابه، وان بعضهم يقدر له «كراهة أن تضلوا أو أن تقولوا»، ومثله اتقاء أن تقولوا، بل هذا أحسن، وبعضهم يقدر النفي فيقول: لئلا تقولوا. والمعنى على كل وجه ما ذكرناه [illegible] عليهم.

فتاوى المنار

فتحنا هذا الباب لإجابة أسئلة المشتركين خاصة، اذ لا يسع الناس عامة، ونشترط على السائل ان يبين اسمه ولقبه وبلده وعمله (وظيفته) وله بعد ذلك ان يرمز الى اسمه بالحروف ان شاء، واننا نذكر الاسئلة بالتدريج غالبا وربما قدمنا متأخرا لسبب كحاجة الناس الى بيان موضوعه وربما اجبنا غير مشترك لمثل هذا ولمن مضى على سؤاله شهران او ثلاثة ان يذكر به مرة واحدة فان لم نذكره كان لنا عذر صحيح لاغفاله

« انا عربي وليس العرب مني »

(س ٤١) من صاحب الامضاء بمصر

مولاي السيد الامام مفتي المنار نفع الله به المسلمين

اما بعد السلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته فاننا نلتمس كتابة جواب عن سؤالنا هذا في المنار الاغر لكشف الغمة عن صحة الحديث المسؤل عنه ومعناه

السؤال: قرأنا في جريدة المؤيد اليومية كتاب تهديد جاءها من بعض الترك يذم

فيه العرب جاء فيه حديث « انا عربي وليس العرب مني » فهل من سند صحيح لهذا الحديث بهذه الرواية ام برواية اخرى؟ واذا صح افلا يكون النبي (ص) قد تبرأ من عموم العرب وهم قومه وعشيرتهم ؟ وما سبب ذلك اذا صح ؟

ثم أننا نسمع بشيوع هـذا الحديث في امـة الترك حتى ان كل من خدم في العسكرية « الجهادية » سمعه منهم بروايات منها « انا عربي وليس الاعراب مني » ومنهـا « انا عربي وليس أعرب مني » فأية الروايات أصح ؟ أفيدونا لازلتم ملجأ لحل الغوامض
سائل

(ج) لايصح شيء من ألفاظ هذا الحديث بل هو موضوع مختلق على النبي صلى الله عليه وسلم . وانا لم أسمعه من أحد الا من بعض افراد عسكر بلدنا الذين حضروا حرب البلقان الاولى وحرب الروسية للدولة وغيرهم ممن أدوا الخدمة العسكرية مع أمثالهم من الترك . نقل الينـا هؤلاء ان بعض أفراد الترك كانوا يحتقرونهم ويقولون لهم : ان الله قد ذم العرب في القرآن العظيم العالي بقوله (الاعراب أشد كفرا ونفاقا وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله) وان النبي (ص) قال فيهم « أنا عربي وليس العرب مني » فمن هؤلاء من كان يتعجب من هذه الاقوال ولا يدري ما يقول كالاميين . ومنهم بعض الاذكياء الذين يقرءون القرآن كانوا يجيبون عن الآية بما يقابلها من قوله تعالى في سورتها - التوبة (ومن الاعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر ويتخذ ماينفق قربات عند الله وصلوات الرسول) فيفهم من مجموع الآيتين ان تلك في كافري الاعراب ومنافقيهـم ، وهـذه في مؤمنيهم الصـادقين الصـالحين ، وان المدح والذم فيها ليس للجنس ، ولكن لم أسمع من أحد ولا عن أحد منهم أنه أجاب بأن الاعراب هم سكان البادية خاصة والواحد أعرابي ، وان علة كون كفارهم ومنافقيهم أشد كفراً ونفاقاً من أمثالهم في الحضر هي جفوة البداوة وقسوتها وخشونتهـا كما هو معروف عند جميع الامم ، وان التعرب أي سكنى البادية كان محرما على المؤمنين بعد الهجرة لوجوب ملازمة النبي (ص) ونصرته

وأما الحديث فلم يكن أحد من أولئك العوام يعلم ان بعض الناس قد كذب على الرسول (ص) ونسب اليه أحاديث لم يروها عنه أحد من نقلة حديثه فمنها ماله معنى صحيح ومنها مامعناه باطل كالفظه . وهذا القسم منه مالا يعرف بطلان معناه الا العلماء ، ومنه ماهو بديهي يعرف بطلانه كل من شم رائحة الاسلام كقول أولئك السفهاء من الترك انه (ص) قال « أنا عربي وليس العرب مني » اذ لامعنى لهذا النفي الا التبرؤ من قومه

العرب . وليس الغريب أن يحفظ هذا بعض المتعلمين المتفرنجين الذين أفسدت السياسة عليهم دينهم فكان من عصبيتهم الجنسية التركية بغض العرب ، ولكن العجيب الغريب وصول هذه المفسدة الى عوامهم الذين نسمع ان أكثرهم باق على فطرته الاسلامية يحب العرب تدينا لانهم قوم نبيه صلى الله عليه وآله وسلم

وقد سمعت من بعض من شهد هذه المحاورات أنهم كانوا يجيبون عن الحديث بأن أصله « أنا عربي وليس أعرب مني » وأنهم رووه محرفاً . ولا أدري أعنادي كان سمعه ممن أجاب بذل هذا الجواب ؟ أم ظن أن أصله ماذكر اصححه بظنه ؟

واني أورد هنا بعض الاحاديث الواردة في مناقب العرب إتماما للحجة على أولئك المنافقين من الترك وتثبيتاً لاخواننا المؤمنين الصادقين منهم ومن غيرهم . فمنها قوله (ص) « أحبوا العرب لثلاث : لاني عربي والقرآن عربي وكلام أهل الجنة عربي » رواه الطبراني والحاكم والبيهقي وكذا العقيلي ووضع السيوطي بجانبه في الجامع الصغير علامة الصحة . ومنها « ان الله اصطفى كنانة من ولد اسماعيل واصطفى قريشاً من كنانة واصطفى من قريش بني هاشم واصطفاني من بني هاشم » رواه مسلم في صحيحه والترمذي عن واثلة ، ولفظ الترمذي « ان الله اصطفى من ولد ابراهيم اسماعيل واصطفى من ولد اسماعيل بني كنانة واصطفى من بني كنانة قريشاً » الخ فهذا الحديث الصحيح يدل مع قوله تعالى (ان الله اصطفى آدم ونوحا وآل ابراهيم وآل عمران على العالمين) ان العرب بني اسماعيل هم صفوة أصفياء الله من البشر كلهم وصفوتهم قريش وصفوة قريش بنو هاشم ، فهم لب اللباب ، وخاتم الرسل عليه أفضل الصلاة والتسليم صفوتهم فهو سيد ولد آدم على الاطلاق ، فكيف يتبرأ من قومه الذين اصطفاهم الله تعالى واصطفاه منهم ؟ ومن عساه يستبدل بهم في عرف أولئك المنافقين ؟ وقد روى الحاكم هذا المعنى من حديث ابن عمر بلفظ آخر وهو : « ان الله اختار من آدم العرب واختار من العرب مضر ومن مضر قريشاً واختار من قريش بني هاشم ، واختارني من بني هاشم ، فأنا خيار من خيار ، فمن أحب العرب فبحبي أحبهم ، ومن أبغض العرب فببغضي أبغضهم » وروى أيضاً من حديث أنس مرفوعاً « حب العرب إيمان وبغضهم نفاق » وسند هذا ضعيف يؤيده ويقويه سائر الاحاديث في الباب مما تقدم وما هو في معناه كحديث « لا يبغض العرب الا منافق » رواه عبد الله بن الامام احمد في زوائده عن علي كرم الله وجهه ، وحديث « لا يبغض العرب مؤمن » رواه الطبراني عن ابن عمر ، وحديث « من

احب العرب فبو حي حقا » رواه ابو الشيخ عن ابن عباس .

فهذه الاحاديث تدل على ان هؤلاء الذين عرفوا ببغض العرب كلهم من المنافقين المبغضين لله تعالى ولرسوله (ص) وقد اشتهر عن بعض أهل الجراءة منهم التصريح ببغض الاسلام ، والنيل من مقام خاتم الرسل عليه أفضل الصلاة والسلام ، والطعن في الخلفاء وسائر الصحابة الكرام ، وهم يتعمدون إذلال العرب وإهانتهم انتقاما من الاسلام ، ولا غرو ففي حديث جابر عند ابي يعلى بسند صحيح « اذا ذلت العرب ذل الاسلام » اللهم اعز الاسلام واعز العرب ، اللهم وأعز من أعز العرب وأذل من أذلهم الى يوم القيامة

﴿ تحويل مصلحة الأوقاف العمومية بمصر الى نظارة ﴾

الاوقاف العمومية هي الموقوفة على المصالح الاسلامية العامة كالمساجد والمدارس والتكايا أو أعمال البر والخير مطلقا أو مقيدا ، ومنها أوقاف الحرمين الشريفين والجامع الأزهر . فمنها ما وقف [illegible] هذه المصالح بعينه أو مطلقا ، كأوقاف الملوك التي لا تراعى شروطها والأوقاف التي جهلت شروطها أو تعذر صرفها فيها . وقد كانت هذه الأوقاف قبل النظام الجديد الذي أوجده (محمد علي الكبير) في مصر تابعة لحال حكومتها في الفوضى والاختلال والضياع ، ثم أدخلت في سلك النظام حتى جعلت نظارة من نظارات الحكومة قبل الاحتلال الانكليزي . ثم جعلت مصلحة مستقلة ناظرها الشرعي هو الحاكم العام للبلاد (الخديو) وهو يوكل عنه مديرا يتولى الاعمال الادارية العامة ، وأضيف اليها كثير من الاوقاف الخصوصية لثقة بضبطها ، وما يناط بالقاضي الشرعي من تلك الاعمال كالاذن بالاستبدال وتولية النظار وعزلهم يرجع فيه الى قاضي مصر . وقد رقت هذه المصلحة بالتدريج وكثر دخلها وعمر كثير من مبانيها وأرضها . ولكن الناس ينتقدون إدارتها وديوانها بأشد مما ينتقدون به نظارات الحكومة ومصالحها ، وكان الخاصون منهم يتمنون أن يكون نظامها أتم من نظام تلك النظارات والمصالح وارتقاؤها أكمل لتكون حجة على اقتدار المصري على الاعمال العامة بدون مراقبة الاجنبي وسيطرته ، حتى لا يكون للمحتلين وجه للتعرض لها ووضعها تحت سيطرتهم

حدثني شيخنا الاستاذ الامام في سنة ١٣١٦ عند حدوث مسألة إصلاح المحاكم

الشرعية انه كان قال للأمير منذ سنين : ان في يد مولانا (وفي الاصل افندينا) ثلاث مصالح لا يمد الانكليز اليها أيديهم الآن لأنها دينية ، اذا أصلحتها تحيي بها المسلمين وهي الاوقاف والازهر والمحاكم الشرعية . فهذه الكلمة المسجلة في المنار منذ سنين تدل على ان أهل الرأي من المسلمين كانوا يخافون من أوائل العهد بالاحتلال أن تفضي سيطرته الى الدين بجعل معاهد العبادة والتعليم الديني والدينين به وبالوظائف الدينية تحت سيطرة غير المسلمين ، وكذلك ريع الاوقاف الاسلامية المحبوسة على مصالح المسلمين ، فلا يبقى للمسلمين استقلال ما حتى في أمر دينهم ، فاذا يكون لهم من الاستقلال في أمر دنياهم ؟

وإنما جاء هذا الخوف مما يعلمونه من تصرف بعض الاوربيين في مستعمراتهم الاسلامية كتصرف فرنسة في أوقاف الجزائر وتونس وفي جعلها المساجد والتعليم الديني تحت سيطرتها ، وذلك أشد ما يخشاه مسلمو تلك البلاد وإلى جميع المستنيرين من مسلمي الارض . ولكن الانكليز أوسع من الفرنسيين صدرا ، وأكبر أناة وروية وصبرا ، وأعلم بمداراة شعور الأمم وأدق خبرة وأدرى بسنة التدريج في إحكام النفوذ والسلطة وأسمح [illegible] مصر من الاستعداد الطبيعي للعمران في [illegible] وبجعل الاوربيين وما لهم فيها من الامتيازات والاملاك والديون - بهذا كله أمكن لهم (أي للانكليز) أن يساكوا في ادارتها والسيطرة على حكومتها مساكا لطيفا لم تشعر الامة بثقل وطأته ، ولا بأنها فقدت شيئا كان لها قبله . ذلك بأنهم كانوا يتقون كل ماله علاقة بالدين ، ويعملون سائر الاعمال بالأوامر الخديوية العالية وقرار النظار الوطنيين . وبأن الجرائد المعارضة لم تكن تنتقد أحدا من رجال الانكليز الا قليلا، وانما كانت تبالغ في انتقاد الوزارة المصرية وتلصق كل ماتنكره من الاعمال بها، وكانت عاقبة هذا ان كل إصلاح حصل في مصر حفظ ونسب الى المحتلين . وكل ما كان ينتقد عليهم أو على الحكومة المصرية بسببهم قد نسيه الجمهور إما لأنه سلبي، وإما لأنه ألف، وإما لانه عمل عارض ليس له صورة باقية . واما تأثير هذا المسلك في خارج القطر المصري فهو أنه قد جعل للانكليز اسما سميا ، وقدرا عليا ، وصار مسلمو الشرق والغرب ، يفضلونهم به على جميع الافرنج أو جميع دول الارض .

لاجل هذا تعجب كثير من الناس في هذه الأيام من تصدي لورد كتشنر الى تحويل مصلحة الاوقاف الاسلامية الى نظارة مع علم الناس بأن النظار مجبورون على

ان يكونوا تحت سيطرة المعتمد الانكليزي في مصر كما هو الواقع ، وكما صرح به ناظر خارجية انكلترة رسمياً ، وكما يفهم من اقتراح لورد كرومر من قبل (وسيأتي نصه) ولكن اللورد أعد للأمر عدته ، واقنع به حكومته ، وحكومته وثقت من حكومة الآستانة بأنها تساعدها على ماتريد عمله في مصر من هذا الامر وغيره وان كان له علاقة بالدين ، لعلمه بتأود الخليفة الذي جرت بريطانية نفوذه الديني في الهند . وكانت الاسباب في مصر ممهدة لما أضعف قانون المطبوعات من حرية الجرائد . وما كان يخشى الا من الازهر ، وقد شاع في البلد ان الازهريين شرعوا في معارضة قوية لكن الحكومة تلافتها بسرعة وحزم . فقدر اللورد كنشنر على ما تمناه لورد كرومر ولم يجرأ على تنفيذه

مدح لورد كرومر في تقاريره مصلحة الاوقاف ولا سيما تقرير سنة ١٩٠٢ ووصف تقدمها وشهد بأنها تعطي جميع المستحقين كل بارة يستحقونها في وقتها وانهم لم يكونوا يصلون الى حقوقهم من قبل هذا [illegible] وأشار في بعض التقارير الى انتقاد بعض الناس عليها وحاجتها الى الاصلاح . وقال في تقريره عن سنة ١٩٠٤ — وهي السنة التي عقد فيها [illegible] وغيرهما من الدول — ان دخل الديوان [illegible] ٣٢ ج م فالزيادة ٨٣٠٠٠ ج م وان [illegible] الاوقاف الاحتياطي بلغ [illegible] ج م في آخر ديسمبر سنة ١٩٠٤ (قال) وفي سنة ١٨٩٦ كان العجز في حساب ديوان الاوقاف ٢٧٤٠٠٠ ومن ذلك الوقت انقلب العجز الى زيادة تتعاظم عاما فعاما حتى بلغ مجموع الزيادات في الثماني سنوات الاخيرة لا اقل من ٤٠٩٤٠٠٠ ج م (أي زهاء نصف مليون جنيه مصري) ثم قال في خاتمة الكلام عنه بعد ذكر تنظيم هراري باشا لحساباته مانصه :

« ولم يجر في الاوقاف مايذكر غير ذلك ولا تزال ادارتها قاصرة جدا كما يعترف بذلك أولو الالباب من المسلمين . غير ان هذا الموضوع ليس من المواضيع التي يعرض لها مشيرو الدولة البريطانية كثيراً » اه أي لتعلقه بأمر الدين

ثم قال في تقريره عن سنة ١٩٠٥ بعد التصريح بأن ديوان الاوقاف أصلح في السنوات الاخيرة بعض الاصلاح مانصه : « واعتقادي ان الاصلاح الوحيد المرضي هو وضع هذا الديوان تحت ادارة ناظر مسئول يكون عضوا في مجلس النظار وتيسر مراقبة أعماله كما تراقب سائر النظارات . أما الآن فانه تحت ادارة مدير عمومي مستقل عن مجلس النظار على الغالب » اه وانما قال : على الغالب ، لان حسابات الاوقاف تحت مراقبة نظارة المالية

فيعلم من هذا ان معنى جعل مصلحة الاوقاف نظارة هو وضعها تحت مراقبة الانكليز أي ان الاموال التي تقام بها شعائر الاسلام في المساجد — ومنها ما هو الحرمين الشريفين — والتي ينفق منها على التعليم الديني تكون تحت مراقبة وسلطة المستشار المالي الانكليزي والمعتمد السياسي البريطاني مادام هذا هو الشكل الذي تدير به بريطانية حكومة هذا القطر . ولا يوجد مسلم يرضى بهذا باختياره، فكان من المنتظر أن تقوم قيامة القطر بالمعارضة والاحتجاج على هذا العمل ، ثم تردد صداه جميع البلاد الاسلامية ، ولكن حال دون ذلك ما أشرنا اليه وما نبينه من الاسباب والتأييدات التي اتخذت والاسراع في التنفيذ . وكيف كان ذلك ؟

ان الذي شاع وذاع في البلد هو أن اللورد عرض المشروع على الخديو وقال ان حكومة لوندرة جزمت به ، فعارض الخديو أولا ثم اتفقا على استفتاء الآستانة بناء على ان هذا المشروع يتعلق بالدين والسلطان هو الخليفة صاحب السلطة الدينية العليا ، فرفع الامر الى الآستانة فجاء الجواب حالا في أيام قليلة بأن تحويل مصلحة الاوقاف الى نظارة جائز لان الامر في الآستانة كذلك ، فقطعت فتوى الخليفة كل كلام في شكل المشروع كما قطعت جهيزة قول كل خطيب ، الا أن بعض الجرائد كالمؤيد بينت الفرق بين نظارات الآستانة ونظارات مصر بأن تلك مستقلة تحت سلطة الخليفة وشيخ الاسلام هو العضو الاول في مجلس النظار ، وهذه تحت مراقبة دولة أجنبية ، ولكن اللورد تلافى هذا الاعتراض قبل وقوعه بما أعلن وأشيع من خبر اتفاقه مع الحكومة على أن لا يكون لنظارة الاوقاف الجديدة مستشار انكليزي بل تكون مستقلة في أعمالها ويكون لها مجلس أعلى من المسلمين تقيد به تصرفات الناظر كالمجلس الاول في الجملة

الحق أقول ان هذا كان مؤثرا ، وان جواب الآستانة لم يفعل في القلوب والافواه ما فعله في الجرائد والاقلام ، فالذين لم يقولوا فيه شيئا بأقلامهم قد قالوا بقلوبهم وأفواههم ، ولكن أيقنوا بأنه لابد من تنفيذ المشروع ، فصار همهم في جعله مسورا بما يكفل استقلال أوقافهم ، وصرف أموالها في مصالحهم ، وجعل القول الفصل فيها لهم دون الاجانب . فكان جمهور الامة يود تأخير صدور الامر العالي به الى أن تنعقد الجمعية التشريعية في أوائل السنة الآتية ـ وما هي ببعيد ـ لتصدق عليه وتقرره فتطمئن به قلوب الامة . وقد كررت جريدة المؤيد القول في هذا الاقتراح ، وكتب سعد باشا زغلول الشهير بمعارفه القانونية والاجتماعية وباستقلال الرأي مقالا في المقطم نقلته سائر الجرائد اقترح فيه

ان يكون رأي الجمعية التشريعية قطعيا نافذا فيا يعرض عليها من ميزانية نظارة الاوقاف وما يوضع له من اللوائح والنظام . وقد ايد اقتراحه بالبيان الذي صادف استحسان جمهور المسلمين - وانما قلت جمهور المسلمين لأنه يوجد في المسلمين كما يوجد في غيرهم من الشعوب من لا يبالي بالمصالح الدينية العامة ، ومن لا يبالي بالمصالح الدنيوية العامة ايضا ، ومن لا يعرف له رأي لانه إمعة يتابع كل أحد في محله ، وناهيك بمن يدهنون لاصحاب السلطة والنفوذ في كل شيء .

ونشرت نبذة في جريدة المؤيد عزيت الى عالم من كبار العلماء تتضمن اقتراحا آخر وربما كان أصدق معبر عن رأي الجمهور في هذا الامر لأنني سمعت بعض الأذكياء يتحدثون به قبل نشر المؤيد له ويقولون ان هذا هو الذي يوده جميع المسلمين . وهاك نص تلك النبذة :

﴿ الرأي الاسلامي العام في مسألة الاوقاف ﴾

لعالم من كبار علماء المسلمين

عرف القراء رأي المؤيد الخاص في هذه المسألة المهمة . وقد كان همنا في هذه الايام مصروفا الى الوقوف على الرأي الاسلامي العام في جميع الطبقات المفكرة من المسلمين فيها . فعلمنا بعد كثرة السؤال واختلاف الآراء أن جمهور المسلمين لم تظهر لهم فائدة معقولة في هذا التغيير والتحويل في ادارة هذه المصلحة الاسلامية فكان هذا داعية الوسواس وسوء الظن ، وسرى فيهم إعتقاد أن هذا التغيير تمهيد لصرف أوقاف المسلمين في بعض الامور العمومية التي يجب الانفاق عليها من خزينة الحكومة أو من جميع طوائف الامة ، فيشارك المسلمين غيرهم من الطوائف في منفعة أوقافهم التي وقفها سلفهم لمصالحهم وشعائرهم الخاصة عبادة لله تعالى وتقربا إليه . ونحن نبرئ الحكومة وكذا المختلون من ارادة ذلك أو الرضاء به . ونقترح على أولي الامر مولانا الخديو ورجال حكومته أن يجعلوا في نص لائحة الاوقاف الجديدة أو الامر العالي الذي يصدر في هذه المسألة مايزيل وسواس الامة وتطمئن به قلوبها وهو أن لا يصرف شيء من أموال الاوقاف في غير الشعائر الاسلامية والتعليم الاسلامي وسائر المصالح الخاصة بالمسلمين ، حتى يعلم الخاص والعام أن أوقاف المسلمين سالمة لهم كغيرهم من الطوائف التابعة للحكومة المحلية (محفوظ)

ثم صدر الامر العالي بالمشروع وفي مقدمته اشارة الى معنى هذا الاقتراح ، وفيه من الضمان مايراه القراء وهذا نصه :

﴿ صورة الأمر العالي بتحويل مصلحة الاوقاف الى نظارة ﴾

نحن خديو مصر

بعد الاطلاع على أمرنا الصادر في ١٣ يوليو سنة ١٨٩٥ بالتصديق على لائحة الاوقاف ومراعاة لرغبتنا في زيادة تحسين السير في جميع المصالح العمومية بحكومتنا وتمكين رعايانا من الاشتراك في مراقبة مرافق الامة طبقاً لقوانين النظامية

ونظراً للازدياد الذي طرأ على الاعمال القائم بها ديوان عموم الاوقاف واتساع نطاق الامور الموكولة اليه وتعددها فضلا عما هو منظور لها من النماء

ونظراً الى الفائدة التي تترتب حينئذ على جعل هذا الديوان نظارة يتولى شؤونها ناظر بعنوان « ناظر الاوقاف » يدخل في هيئة مجلس النظار ، ويعطى له توكيل منا بالصفة المقررة من قديم الزمان ، ويدير الاعمال التي من اختصاص ديوان عموم الاوقاف بنفس المسؤولية الملقاة على عاتق النظار في نظاراتهم ، بحيث يبقى لمصلحة الاوقاف استقلالها الذاتي ، وتكون ميزانيتها قائمة بنفسها على حدتها ، ويكون على هذا الناظر السهر على حسن سير المصالح واستغلال أموالها في شؤون الامة الاسلامية ، والمحافظة على الاحكام الواجب للشروط والقيود المدونة في الوقفيات طبقاً لاحكام الشرع الشريف ، مع الاهتمام باقامة الشعائر الدينية والاعمال الخيرية المتعلقة بها كما يجب ، والرجوع الى المحكمة الشرعية في جميع الاحوال التي نصت اللائحة الحالية على الرجوع فيها اليها

ولما كان من الضروري دقة البحث في التعديلات والتحسينات التي قد تدعو الحاجة الى ادخالها في نظام مصلحة الاوقاف ، ومن المفيد ان يضم الى الناظر المشار اليه مجلس يعاونه في هذه المهمة ويحل محل مجلس الاوقاف الاعلى الحالي بنفس الاختصاصات المخولة له ، بحيث تبلغ نتيجة هذا البحث الى مجلس النظار ، كما ان كل تعديل في النظام الحالي يجب تقديمه الى الجمعية التشريعية لمناقشة فيه ثم عرضه علينا لصدوره في صيغة قانون —

فبعد موافقة رأي مجلس النظار امرنا بما هو آت

المادة الاولى ـ تنشأ نظارة للاوقاف يتولى ادارتها ناظر يعاونه وكيل نظارة وتحل محل ديوان عموم الاوقاف

المادة الثانية — يتألف المجلس الاعلى من ناظر الاوقاف بصفة رئيس ومن

شيخ الجامع الازهر ومفتي الديار المصرية ومن ثلاثة أعضاء آخرين يكون تعيينهم منا بناء على طلب مجلس النظار

فاذا حدث مانع لناظر الاوقاف تكون رئاسة المجلس الاعلى لوكيل نظارة الاوقاف واذا حدث مانع لواحد من العالمين المشار اليهما فيقوم مقامه عالم آخر يعينه مجلس النظار

وتكون مداولات المجلس صحيحة ان حضره اربعة من الاعضاء على الاقل وعند انقسام الآراء يكون رأي الرئيس مرجحاً

المادة الثالثة ـ تكون ميزانية الاوقاف نافذة المفعول بمقتضى ارادة خديوية تصدر منا بناء على طلب نظارة الاوقاف وتصديق المجلس الاعلى وبعد اخذ رأي الجمعية التشريعية

ويقدم للجمعية التشريعية ايضا الحساب الختامي لكل سنة بعد انقضائها

المادة الرابعة ـ تلغى جميع النصوص المخالفة لأمرنا هذا · وفي جميع النصوص الاخرى يكون اسم ـ ناظر الاوقاف ـ ونظارة الاوقاف ـ بدلا من مدير عموم الاوقاف ـ وديوان عموم الاوقاف

المادة الخامسة ـ على رئيس مجلس النظار تنفيذ أمرنا هذا · ويسري العمل به بمجرد نشره في الجريدة الرسمية

صدر بسراي [illegible] ٢ ذي الحجة سنة ١٣٣١ [illegible] ١٩١٣ عباس حلمي

هذا هو نص الأمر العالي الخديوي بجعل مصلحة الاوقاف نظارة · وخير مافيه النص في مقدمته على صرف أموال هذه الاوقاف في مصالح المسلمين ومراعاة الاحكام الشرعية فيها . فان هذا النص يؤمن المسلمين من ضياع شيء من أوقافهم على غير مصالحهم اذا روعي والتزم . وبهذا تكون هذه المصلحة خيرا مما كانت عليه من هذا الوجه فان كثيرا من أهل العلم والدين ينتقدون تخصيص خمسة آلاف جنيه من أوقاف المسلمين لمدرسة الجامعة المصرية التي هي مدرسة دنيوية عامة ، لا اساليبها اسلامية ولا معلموها ولا طلابها من المسلمين وحدهم . وقد صدر الامر العالي الخديوي بتعيين احمد حشمت باشا ناظر المعارف ناظرا للأوقاف وهو الذي اتفق على الثقة به الأمير والمسيد ، وله في الامة ذكر حميد ، وههنا بحث شرعي مهم :

نظارة الأوقاف في نظر الشرع الاسلامي

لم نكتب في هذه المسألة شيئا قبل اتيانها اذ ليس من عادتنا الدخول في السياسة او الادارة المصرية العملية وانما نكتب ما نكتب في بعض المسائل لأجل العبرة والتاريخ.

وقد كان سألنا بعض كبراء الانكليز عن تحويل مديرية الاوقاف الى نظارة جائز في الدين الاسلامي أم لا ؟ فكان مما قلناه في الجواب : اذا كان المراد من هذا التحويل تسمية المتولي لامور الاوقاف والتصرف فيها « ناظرا » فهذه التسمية هي الموافقة لاصطلاح الشرع ، اذ الذي يعرف في كتب الفقه لفظ « ناظر الوقف » « ونظار الاوقاف » وأما لفظ « مدير الوقف » فلا يذكر فيها ، واذا كان المراد من هذا التحويل تغيير نظام ادارة الاوقاف وجعل الناظر المتولي لها تحت سيطرة أجنبية كما هو شأن نظار الحكومة المصرية غير مستقل بعمله فيكون له حكم آخر ... وذكرنا له ذلك الحكم بالاجمال وان التفصيل فيه يتوقف على معرفة ذلك التغيير ما هو

تعيين نظار الاوقاف وعزلهم من حقوق قضاة الشرع . وكان ناظر الاوقاف العمومية التي يديرها الديوان قبل هذا التحويل هو الخديو عباس حلمي باشا ، وكان مدير الاوقاف وكيلا شرعيا عنه . والمفهوم من نص الامر العالي ان الامر في هذا بقي كما كان ، وان الناظر الجديد ناظر سياسي يكون وكيلا [illegible] الشرعي ، فهو كما جعله ناظرا سياسيا بجعله وكيلا شرعيا عنه ، جميع تصرفاته الشرعية يكون له بصفة الوكالة عن الناظر الشرعي ، والذي له [illegible] كما في أعمال مجلس النظار

ومن هنا يظهر الفرق [illegible] عند الفقهاء ، فالذي يولي النظار هناك هو [illegible] وهو الذي يولي شيخ الاسلام وقاضي مصر ويأذن لشيخ الاسلام بتولية قضاة الشرع وعزلهم ، وهو الذي يولي خديو مصر نفسه فليس له من السلطة الشرعية الا ما اعطاه في فرمان توليته

وبقي من مباحث هذه المسألة أن الحكومة جعلت شيخ الجامع الازهر ومفتي الديار المصرية عضوين في المجلس الاعلى لهذه النظارة ليطمئن المسلمون على كون أوقافهم لايتصرف فيها الا على وفق شرعهم وحسب مصالحهم ، وكون معاهد التعليم الديني تبقى مضمونة التقدم والارتقاء . ورضاء المعتمد الانكليزي بهذا مع عدم تعيين مستشار انكليزي لهذه النظارة مما يقصد به اقناع المسلمين بأن الانكليز لايريدون من هذه النظارة شيئا ينافي مصلحة المسلمين المحضة .

وقد يقال هنا لم لم يجعل نصف أعضاء هذا المجلس من علماء الشرع ونصفه من علماء الادارة والنظام مع كون الترجيح في هذه الحالة بين النصفين يكون للناظر الذي هو من القسم الثاني وان لم يحضر من اعضائه الا واحد فقط ؟ واذا فرضنا الآن ان الشيخين ارتأيا في المجلس رأيا أو اقترحا اقتراحا مبنيا على جعل بعض الأعمال

الاولية ، والمدارس الابتدائية والثانوية ، الا ما كان مشكولا شكلا تاما ، سواء كان مقدماً اليها لتقرره من جديد أم معاداً اعادة طبعه مما سبق لها تقريره

كما انها تفضل من الكتب المذكورة الخاصة بالمدارس العالية ما كان بالشكل التام

﴿ المنشور الثاني ﴾

ملخصه أن كل ما يقدم الى النظارة من المؤلفات التاريخية والجغرافية او يطلب منها اعادة طبعه يجب ان تضبط فيه الاعلام بالشكل التام ، وكذا كل كلمة يمكن ان يقع فيها الالتباس .

﴿ المنشور الثالث ﴾

طريقة تحفيظ القطع المنتخبة باقراء القطع قبل تفسير مافيها من المفردات اللغوية والاساليب العربية ، لهذا تأتي بالفائدة المقصودة من استظهار المختارات الشعرية والنثرية « وهي التضلع من متن اللغة والتوسع في أساليب تراكيبها »

لذلك رأينا أن نلفت حضرات المعلمين الى ما يأتي

(١) أن يعد المدرس الشروح [illegible] لما تحتوي عليه القطعة من المفردات اللغوية ويكتبها مسلسلة بعضها تحت بعض [illegible] ويكتب امام كل كلمة اللفظ الذي يفسرها

(٢) أن تكون كتابة الاسماء المطلوب تفسيرها على صيغة المفرد ، واذا مست الحاجة تقرن بتثنيتها وجموعها . وأن تكون كتابة الافعال ايضا على صيغة الماضي ، واذا دعت الحال تصحب بالمضارع والامر ، وأن يضبط بالشكل مايلزم من احرف الكلمة لصحة النطق بها

(٣) أن يكلف التلاميذ تفهم الكلمات وتفسيرها ، واستظهار جميع ذلك ، ويختبرهم فيه بالسؤال والمذاكرة

(٤) بعد التحقق من استثبات التلاميذ الكلمات وتفسيرها ، يقرأ معهم القطعة ويفهمهم وايام معانيها المرادة والاساليب العربية التي يظن غموضها على افهامهم ليكون ذلك بمثابة تطبيق لاستعمال المفردات اللغوية في تراكيب القطعة ثم يكلفهم حفظ تلك القطعة

ويحسن اتباع هذه الطريقة في المطالعة المقصود بها فهم المعنى

ذلك أجدر لاستقرار اللغة في نفوسهم ، وحضور مفرداتها وأساليب تراكيبها في اذهانهم ، فيجدون بعد ذلك ما يريدونه من مبانيها ومعانيها طوع مرادهم ، وعلى اطراف ألسنتهم وأسنة أقلامهم . (الموضوع بقية)

تاريخ الجهمية والمعتزلة (*)

(٨) أول من تكلم في القدر

اشتهر ان أول من احدث القول بالقدر (معبد الجهني) قال الذهبي في الميزان: هو تابعي صدوق لكنه سن سنة سيئة ، فكان اول من تكلم في القدر . قتله الحجاج صبراً لخروجه مع ابن الاشعث اهـ وكان أولا يجلس الى الحسن البصري ثم سلك أهل البصرة بعده مسلكه لما رأوا عمرو بن عبيد ينتحله

ويروى ان من اول تكلم في القدر (غيلان بن ابي غيلان الدمشقي) ويقال انه اخذعن معبد ، ولا منافاة فالاولية نسبية ، بمعنى ان كلا منهما سبق وتقدم على كل من تكلم في القدر بعدهما

وغيلان هذا كان مولى عثمان بن عفان ، وكانت داره بدمشق في ربض باب الفراديس شرقي دمشق . وحكي ابن عساكر ان عمر بن عبد العزيز كان لام غيلان على رأيه ، فكف عن ذلك حتى مات عمر ، فلما مات سال غيلان في القدر سيل الماء ، وكان يفتي الناس لما حج مع هشام سنة (١٠٦) . قال الاوزاعي : قدم علينا غيلان القدري في خلافة هشام ابن عبد الملك ، فتكلم غيلان وكان رجلا مفوّها ، ثم اكثر الناس الوقيعة فيه والسعاية بسبب رأيه في القدر ، واحفظوا هشام بن عبد الملك عليه ، فأمر بقطع يديه ورجليه وقتله وصلبه

(*) تابع لما نشر في ج ١١ م ١٦ ص ٨٣٩

(٩) رجال الجهمية والمعتزلة (القدرية) ممن روى لهما الشيخان البخاري ومسلم في صحيحيهما

من المقرر في الاصول ان ائمة الرواية والأثر لم يتجافوا الرواية عن المبدّعين ، فقد تحملوا عن الشيعة والمرجئة والقدرية والخوارج وغيرهم . ومع تصلب الشيخين في الرواة وتحريهما ، لم يريا مانعا من الرواية عن أعلام من رمي ببدعة ، اتباعا للعلم واستقاء للحكمة من مناهلها . وقد سرد الحافظ ابن حجر في مقدمة الفتح اسماء من رمي بذلك ممن خرج له البخاري . وسرد الحافظ السيوطي في (تدريب الراوي شرح تقريب النواوي) منهم من خرج له الشيخان او احدهما . واما من رمي بذلك ممن روى لهم غير الشيخين فقد تكفلت به كتب الرجال . ومن اشهرها الآن (نقد الرجال) للحافظ الذهبي

ولما كان محدثو الجهمية والمعتزلة رأيت مما يليه ايراد من سمي من رجالهما في الصحيحين ليعلم بذلك تسامح المحدثين في الاخذ عمن رمي ببدعة — اذا كان ثقة صدوقا — وفي تلقي السنة منه طرحا للتعصب ، واعترافا بقدر ذوي الفضل

(١) (بشر بن السري) قال السيوطي : رمي برأي جهم — وهو نفي صفات الله تعالى والقول بخلق القرآن ـ وقال الذهبي : حديثه في الكتب الستة ، روى عنه الامام أحمد ، وقال كان متقنا للحديث عجبا . وقد زعم الذهبي انه رجع عن التجهم ، لكن يبطله تعصب الحميدي عليه ، وقوله : جهمي لايحل ان يكتب عنه ، فمع كونه جهميا روى عنه الائمة المشاهير ، ولم يحفلوا بقول الحميدي ولا غيره فيه

(٢) ثور بن زيد الدئلي (٣) ثور بن يزيد الحمصي (٤) حسان بن عطية المحاربي (٥) الحسن بن ذكوان (٦) داود بن الحصين (٧) زكريا بن اسحق (٨) سالم بن عجلان (٩) سلام بن عجلان (١٠) سلام بن مسكين (١١) سيف بن سليمان المكي (١٢) شبل بن عباد (١٣) شريك بن ابي نمر (١٤) صالح بن كيسان (١٥) عبد الله بن عمرو (١٦) عبد الله بن ابي لبيد (١٧) عبد الله بن ابي نجيح (١٨) عبد الاعلى بن عبد الاعلى (١٩) عبد الرحمن بن اسحق المدني (٢٠) عبد الوارث بن سعيد الثوري (٢١) عطاء بن ابي ميمونة (٢٢) العلاء ابن الحارث (٢٣) عمرو بن ابي زائدة (٢٤) عمران بن مسلم القصير (٢٥) عمير بن هانئ (٢٦) عوف الاعرابي (٢٧) كهمس بن المنهال (٢٨) محمد ابن سواء البصري (٢٩) هرون بن موسى الاعور النحوي (٣٠) هشام الدستوائي (٣١) وهب بن منبه (٣٢) يحيى بن حمزة الحضرمي

قال السيوطي : هؤلاء رموا بالقدر ، وكلهم ممن روى له الشيخان أو احدهما إه وقال ابن تيمية : في هؤلاء — يعني القدرية — خلق كثير من العلماء والعباد ، كتب عنهم واخرج البخاري ومسلم لجماعة منهم . وقال الامام احمد : لو تركنا الرواية عن القدرية لتركنا اكثر اهل البصرة ، قال ابن تيمية : وهذا لأن مسألة خلق افعال العباد وارادة الكائنات مسألة مشكلة إه

* *

(١٠) بيان ان الجهمية والمعتزلة لهم ما للمجتهدين

كما ان اسم الاجتهاد يتناول في عرفهم فروع الفقه ، فكذلك مسائل الكلام لعموم مفهومه لغة واصطلاحا ووجودا ، فان الفرق التي تنوع

اجتهادها في مسائل الكلام ، ربما تربو على مجتهدي الفروع ، وكيف لا تكون من المجتهدين وهي تستدل وتحكم ، وتبرهن وتقضي ، وتجادل خصومها بمآخذها ، وترى ان ما تستدل عليه هو الحق الذي لا يعتقد على سواه ، ولا يدان الحق تعالى بغيره ؟

وجلي ان ما يمت على بذل الجهد في الفروع ، هو نظير ما يمت عليه في الاصول أو اعظم ، فان مسألة الرؤية وخلق الاعمال وخلق القرآن وارادة الكائنات ، لما تشابهت الآيات والاخبار فيها ، ذهب كل فريق الى ما رآه اوفق لكلام الله وكلام رسوله عليه الصلاة والسلام ، وأليق بعظمة الله سبحانه وثبات دينه ، فكانوا الملك مجتهدين ، وفي اجتهادهم مأجورين ، وان كانوا في القرب من الحق متفاوتين

ثم لايمكن ان يقال في مسائل الاصول ان كل مجتهد فيها مصيب ، وان الحق فيها متعدد كما قاله الاكثرون في غيرها من مسائل الفروع المجتهد فيها ، وذلك لان مسائل الاصول امور ذاتية لا تختلف بالاضافة ، ولا تحتمل اجتهادين يمكن ان يكون الامر على هذا أو ذاك ، بل لابد من كونه على احدهما البتة ، والامور الذاتية لاتتبع الاعتقاد بل الاعتقاد تتبعها ، فلذلك كان المصيب فيهما واحدا ، والحق منها واحداً ، والمخطئ معذوراً غير آثم ، لأنه بذل وسعه ، واستنفد طاقته ، وما يراه غيره نصا يراه هو غير نص ، فالحقيقة عند احدهما مجاز عند الآخر ، وبالعكس .

وقد ذهب الغزالي الى ان الاثم غير محطوط عن المخالفين في مسائل الاصول . وحجته اتفاق سلف الأمة على ذم المبتدعة ومهاجرتهم ، وقطع الصحبة معهم ، وتشديد الانكار عليهم ، مع ترك التشديد على

المختلفين في مسائل الفرائض وفروع الفقه : هذا ما احتج به الغزالي ،
وعجيب من مثله ان يعد هذا دليلا على تأثيمهم ! واي مناسبة بين الدعوى
والدليل ؟ على ان دعوى الاتفاق على ذم المبتدعة ومهاجرتهم مردودة بتلقي
أئمة الحديث عن كثير منهم ، وحمل السنن النبوية عنهم ، وجعلهم في الآثار
حجة بينهم وبين ربهم ، وقد سبق لنا عدة ممن روى لهم الشيخان من
الجهمية والمعتزلة والقدرية . وبقي ممن رويا لهم من الاباضية والمرجئة
والشيعة عدد عديد كما تراه في مقدمة فتح الباري للحافظ ابن حجر
والتدريب شرح التقريب للسيوطي وميزان الاعتدال للذهبي . وقدمنا
ما قاله الامام أحمد رحمه الله ورضي عنه « لو تركنا الرواية عن القدرية
لتركنا أكثر أهل البصرة » : (قال شيخ الاسلام ابن تيمية رحمه الله) وفي
هؤلاء خلق كثير من العلماء والعباد [illegible] منهم وأخرج البخاري ومسلم
لجماعة منهم (ثم قال) لكن من كان داعية لم يخرجوا له ولهذا لم يخرج
اصحاب الصحيح لمن كان داعية إﻫ

وقد اشتهر هذا (اعني أن من كان داعية الى بدعته لم يخرجوا له)
مع ان العراقي اعترض ذلك بان الشيخين احتجا بالدعاة ، فاحتج البخاري
بعمران بن حطان الخارجي ، واحتجا بعبد الحميد بن عبد الرحمن الحماني ،
وكان داعية الى الارجاء ، فانى يستقيم مع ذلك دعوى هجران السلف
لهم ، وقطع الصحبة معهم ، وهم قد حملوا عنهم من السنة ما لم يوجد عند
غيرهم ، واصبح مرويهم حجة دائمة ابد الآباد ! - نعم كان بعض السلف
سلق بعض متقدمي الجهمية والقدرية بألسنة حداد ، ورموهم بما هم براء
منه ، وكان ذلك ايام ضعفهم وقلتهم ، اما وقد انتشر مذهبهم بعد ، ودالت

الدولة لهم ، ودخل فيه قوم من العلماء والعباد ، فلم يسع من عاصرهم من ائمة الحديث الا التحمل عنهم وانصافهم ، كما رأيت في عبارة الامام احمد المتقدمة

فتبين مما ذكرناه ان ماعول عليه الغزاليّ في المستصفى لايصح دليلا ولا شبهة مع ماعرفت من تخريج الشيخين عنهم ، بله غيرهما ، ممن نزل شرطه في تخريجه عن شرطهما ، كاصحاب السنن والمسانيد والمعاجم ، فان هذه الكتب ملأى بالمبدّعين من الفرق كلها ، كما يعرفه من سبر طبقات الرجال ، ورأى رموز من خرج لهم من الرواة المشاهير

وبالجملة فكون هذه الفرق مجتهدة لها ماللمجتهدين، امر لا يرتاب فيه منصف ، والمجتهد معذور بل مأجور وان اخطأ ، واذا انتفى الاثم عن المجتهد فأنى يصح نبزه بالالقاب السوءى والحفيظة عليه ؟ وهل فرّق الائمة وجعلها شيعاً واحزاباً الا [illegible] وزراء العيب ، مع مايجمع الكل من اخوة الاسلام

ولقد انصف العلامة المقبلي في قوله في بحث الكلام مع المعتزلة من كتابه العلم الشامخ مامثاله : اني لست بمعتزلي ولا اشعري ، ولا أرضى بغير الانتساب الى الاسلام ، وصاحب الشريعة عليه الصلاة والسلام ، واعدّ الجميع اخوانا ، واحسبهم على الحق اعوانا . انتهى

ومن طالع كتاب (حجج القرآن) للامام احمد الرازي الحنفي رحمه الله ، ورأى تمسك كل فرقة من فرق الاسلام بآيات واخبار ذهب بها اجتهادها الى انها نصوص أو ظواهر فيما تذهب اليه ، عذرها ورحمها ، وعلم انها لم تكل جزافا ، وانما وزنت الامر بمعيار ما ادى اليه النظر ، وتوخت الحق جهدها . ثم ليس كل من يتوخى الحق يصيبه ،

إلا انه ليس على باذل جهده ملام ، والسلام

وقد حكى السبكي في طبقاته عن ابيه انه وقف لبعض المعتزلة على كتاب سماه (طبقات المعتزلة) افتتح بذكر عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ظنا منه انه منهم على عقيدتهم (قال السبكي) وهذا نهاية في التعصب، فانما ينسب الى المرء من مشى على منواله إه وجليّ ان الذي اوصلهم الى عد الصحابة منهم ،هو الشغف بمذهبهم ، والاعتقاد بأنه الحق والصواب. ولا غرو فان الولع بمذهب يحاول ان يرد الكتاب والسنة وخيار الناس اليه ، بيد ان من هؤلاء مجتهدين ، ومنهم مقلدون ، وبينهما بون عظيم ، فان المجتهدين يؤثرون مذهبهم لما يرشدهم الدليل اليه ، فهم يستدلون ثم يعتقدون ، واما المقلدون فهم يؤثرون مذهبهم حبا او عصبية ، فيعتقدون ثم يستدلون لما يعتقدون ، [illegible] فما أضيع البرهان عند المقلد »

قال الامام أحمد بن المختار الرازي في مقدمة كتابه (حجج القرآن) لما استخرج منه حجج كل طائفة ما مثاله : وما من فرقة الا ولها حجة من الكتاب ، وما من طائفة الا وفيها علماء ، نحارير فضلاء ، لهم في عقائدهم مصنفات ، وفي قواعدهم مؤلفات ، وكل منهم يؤول دليل صاحبه على حسب عقيدته ووفق مذهبه ، وما منهم من أحد الا ويعتقد انه هو المحق السعيد ، وان مخالفه لفي ضلال بعيد « كل حزب بما لديهم فرحون » (قال) وليس قصدنا بيان مقولات المتكلمين ، من المتأخرين والمتقدمين ، ولكن القصد ان نذكر جميع حجج القرآن بطريق الاستيعاب، ثم نذكر حجج الحديث ، لكل قوم من القديم والحديث ، لكيلا يعجل

طاعن بطعنه في فرقة ، ولا يغلو قادح بقدحه في طائفة

وكتابه هذا بديع جداً ، رتبه على ثلاثين باباً ، في كل باب فصول جمة ، وقال رحمه الله في خاتمته ماصورته : هذا آخر ما اوردنا من حجج القرآن ، لجميع اهل الملل والاديان ، وهي (بمجموعها حجة) على اصحاب الظواهر الذين يأبون التأويل ، وينسبون مخالفيهم الى التعطيل (وحجة ايضا) على المتعصبين الذين يقابلون مخالفيهم بالتكفير والتضليل ، والتخطئة والتجهيل ، (وحجة ايضا) على من ينكر النظر في كتب الاصول ، أو يقول فيها بالمنقول دون المعقول (وحجة ايضا) على من يكفر أهل القبلة ، أو يميز طائفة بالقبلة ، أو يخرجهم ببدعة عن الملة (وحجة ايضا) على من يجزم على مجتهد واحد بالاصابة ، أو يبجل في تضليل فرقة وعصابة (وحجة أيضا) على العلماء القاصرين أيضا [illegible] التأليف [illegible] الجدل [illegible]

(١١) شبهة الاثرية في اضطهاد الجهمية ، والجهمية في اضطهاد الاثرية

لما دالت لكل منهم الدولة ، وفيه اعتذار عن الجاحظ

قدمنا ان شيوخ الرواية ، وأعلام الأثر ، كانوا يغرون الامراء بمخالفيهم ، لما يذيعونه من تكفيرهم وزندقتهم ، وتم لهم الامر في مثل غيلان والجعد ومحمد بن سعيد المصلوب وامثالهم ، — كما حكيناه قبل .

قال الامام ابن تيمية في بعض فتاويه : ان السلف الذين كفروا الجهمية ، قالوا يستتابون فان تابوا والا قتلوا (قال ابن تيمية) لكن من كان مؤمنا بالله ورسوله مطلقا ، ولم يبلغه من العلم ما يبين له الصواب ، فانه لايحكم بكفره ، حتى تقوم عليه الحجة التي من خالفها كفر ، اذ كثير من الناس

يخطىء فيما يتأوله من القرآن ، ويجهل كثيراً مما يرد من معاني الكتاب والسنة ، والخطأ والنسيان مرفوع عن هذه الأمة ، والكفر لايكون الابعد البيان (قال) والائمة الذين امروا بقتل مثل هؤلاء الذين ينكرون رؤية الله في الآخرة ، ويقولون: القرآن مخلوق ونحو ذلك ، قيل انهم امروا بقتلهم لكفرهم ، وقيل لانهم اذا دعوا الناس الى بدعتهم اضلوا الناس،فقتلوا لاجل الفساد في الارض ،وحفظا لدين الناس ان يضلوهم إه

هذا ما حكاه الامام ابن تيمية في شبهة من امر بقتلهم ، وقد حكى الشبهتين بصيغة التمريض ، ليشير الى ان ما زعموه دليلا ليس بدليل ولا شبهة ، فان سفك دم المعصوم انما يكون بامر قاطع ، قد نص عليه نصا لا احتمال فيه ولا اشتباه اذ مثله يكون من المحكمات الواضحات ، والاحكام الجليات ، لانها تجاوزة الآراء وتشاد الاقوال ، لانه لااعظم بعد الشرك من سفك دم المعصوم ، وكل من اتى بالشهادتين فقد عصم دمه الا بحقه المنصوص عليه ، والاحاديث في ذلك كثيرة شهيرة لاحاجة الى ايرادها ، وكلها متفقة على ان كل من اظهر الاسلام فقد عصم دمه وماله ، وإن كان يخفي جحوداً أو تعطيلا كالمنافقين ، لان لنا الظاهر ، والله يتولى السرائر

اذا كان هذا الحكم في العصمة يعم المنافقين ، فكيف لايتناول من لايشك في ايمانه ، ويبذل وسعه لحفظ العقيدة ؟ فانى يستحل دمه لمجرد انه تأول بابا من ابواب العلم ، خالف فيه رأي غيره ، مع انه لم يجحد من الدين شيئا ؟

ومن هذا كل ما ذكروه في قتل الزنديق ، فانه لا حجة فيه قاطعة ، ولا بينة ناصعة ، كما أوضحته في تعليقاتي على (الروضة الندية) للسيد صديق حسن خان ، والمدقق يرى انه لا يمكن ان يؤتى في مسألة قتل الزنديق ببرهان من كتاب الله ولا من سنة رسوله صلى الله عليه وسلم لا من نص محكم ولا من ظاهر ولا من آحاد لا صحيح ولا حسن ، لان الزنديق ان أظهر الاسلام واسر الإلحاد فحكمه كالمنافق ، وبالاجماع هو معصوم الدم . وان جهر بالكفر فلا يحكم عليه بالردة الا بعد ان تزاح كل علة ، ولا يبقى لمرتاب شبهة ، وهناك نجري عليه احكام المرتدين

وقد تقرر اجماعا ان الحدود تدرأ بالشبهات ، فمن عكس القضية ان نجلب الحدود بالشبهات ، والبحث يدريه حق الدراية من تقلب لكل فرع دليله من الكتاب أو السنة ، و[illegible]

وبالجملة فدعوى الكفر على هذه الفرقة مردودة بما ذكرنا . وقد نقل شيخ الاسلام ابن تيمية رحمه الله ، في كتابه « موافقة صريح المعقول لصحيح المنقول » ان الكفر يكون بتكذيب الرسول صلى الله عليه وسلم فيما جاء به ، او الامتناع عن متابعته ، كما سنأثره عنه بعد مفصلا في بحث « حظر الائمة المحققين ، من رمي فرق المسلمين بالتكفير » فسقط دعوى هدر دمهم بالتكفير

واما دعوى استحلال دمهم بأنهم من السعاة في الفساد في الارض ، فمردودة بان الآية لا تتم مثلهم قط وان جرينا على ان العبرة بعموم اللفظ ، لأن العموم في الآية انما هو فيما شابه الحالة التي نزلت فيها أعني فيمن كان محاربا لله ورسوله محادا لهما ، متظاهرا بالكفر بالدين ، ساعيا بافساد

السابلة بالقتل والنهب واخلال الأمن ، فالعموم هو في كل من اتصف بذلك ، في أي زمان ومكان ، فمن أين يشمل عموم الآية من كان مؤمنا قانتا محافظا على شعائر دينه ، متأولا في ابواب من العلم ماتتسع له اللغة ، ولا يأباه اللسان ، وهو لم يُرِدْ من لفظ الآية لامنطوقا ولامفهوما ، ولم تنزل في مثله . وفي الحقيقة هذا جلي لايحتاج الى ان ينبه على مثله ، لان هذه الفرق المتأولة مؤمنة موحدة مطيعة لله ورسوله ، ليست محاربة لله ورسوله ، ولا محادة لهما ، ولا ساعية في الارض بالفساد قتلا ونهبا ، فمن المحال ان يدعى شمول الآية لها ، وهل يعم المؤمنين ما نزل في الكافرين؟ والقائل بذلك من السلف مخطئ في اجتهاده ، أو أنه لم يبذل الوسع فيه ، ولذلك خالف فيه الائمة المحققون واجمعوا على عدم تكفيرهم كما سيأتي مأثورا

وكأن الذي سبب لهم ما اصابهم من الاضطهاد ، هو ضعفهم في اول الامر وقلتهم ، ولذلك لما كثروا وقوي حزبهم ، وتمذهب لهم في عهدهم من كل ورع وتقي ، من هو قدوة وعدل رضي ، لم ير مخالفوهم بداً من تحمل الحديث والعلم عنهم ، حرصا على الحكمة ان تضيع بموت اهلها ، كما قدمنا عن الامام احمد ، في اعتذاره عن الرواية عن القدرية ، مع انهم فرقة من الجهمية ـ هذا ما كان من امر الاثرية ، في اضطهاد الجهمية ـ

واما الجهمية (المعتزلة) فقد اعتذروا عن اضطهاد خصومهم ـ الاثرية ـ لما دالت لهم الدولة ، بما قدمناه من نص كتاب المأمون في المحنة المشهورة ، وبما اوضح بعضه ايضا خطيبهم (الجاحظ) فقد قال[1] :

(١) نقلا عما طبع له في حاشية الكامل للمبرد ج ٢ ص (١٣١) فما بعدها

وبعد فنحن لم نكفر الا من اوسعناه حجة ، ولم نمتحن الا اهل التهمة ، وليس كشف المتهم من التجسس ، ولاامتحان الظنين من هتك الاستار ، ولو كان كل كشف هتكا ، وكل امتحان تجسسا ، لكان القاضي اهتك الناس لستر ، واشدالناس كشفا لعورة ، (قال) والذين خالفوا في العرش انما ارادوا نفي التشبيه فغلطوا ، والذين انكروا أمر الميزان انما كرهوا ان تكون الاعمال اجساما واجراما غلاظا ، فان كانوا قداصابوا فلاسبيل عليهم ، وان كانوا قداخطأوا فان خطأهم لايتجاوز بهم الى الكفر ، وقولهم وخلافهم بعد ظهور الحجة تشبيه للخالق بالمخلوق ، فبين المذهبين أبين الفرق ، وقد قال صاحبكم[1] للخليفة المعتصم — يوم جمع الفقهاء والمتكلمين والقضاة والمخلصين ، إعذاراً وانذارا — : امتحنني وانت تعرف ما في المحنة وما يجب فيها من التقية ، ثم امتحنتني من بين جميع هذه الأمة ، قال المعتصم : وبعث الخليفة الي قد حبسك وقيدك ولو لم يكن قد حبسك على تهمة ، لامضى الحكم فيك ، ولو لم يخفك على الاسلام ما عرض لك ، فسؤالي اياك عن نفسك ليس من المحنة ، ولا من طريق الاعتساف ، ولا من طريق كشف العورة ، اذا كانت حالك هذه الحال ، وسبيلك هذه السبيل .

(ثم قال الجاحظ) وكان آخر ماحج[2] فيه ان احمد ابن ابي دؤاد قال له : أليس لا شيء الاقديم او حديث ؟ قال : نعم ، قال او ليس القرآن شيئا ؟ قال نعم ، قال : أوليس لا قديم الا الله قال : نعم ، قال : فالقرآن اذا

---

(١) يعني الامام أحمد رحمه الله يخاطب به الاثرية

(٢) يعني الامام احمد رحمه الله

حديث . قال ليس انا متكلم (ثم قال الجاحظ) وزعم[1] يومئذ ان حكم كلام الله تعالى كحكم علمه ، فكما لا يجوز أن يكون علمه محدثا ومخلوقا ، فكذلك لا يجوز ان يكون كلامه مخلوقا ومحدثا . فقال له ابن ابي دؤاد: اليس قد كان الله يقدر ان يبدل آية مكان آية ، وينسخ آية بآية ، وان يذهب بهذا القرآن ويأتي بغيره ، وكل ذلك في الكتاب مسطور ؟ قال نعم . قال: فهل كان يجوز هذا في العلم ؟ وهل كان جائزاً أن يبدل الله علمه ويذهب به ويأتي بغيره ؟ قال: لا، وقال له روينا في تثبيت ما نقول الآثار، وتلونا عليك الآية من الكتاب، واريناك الشاهد من العقول التي بها لزم الناس الفرائض، وبها يفصلون بين الحق والباطل . فعارضتنا انت الآن بواحدة من الثلاث ، فلم يكن ذلك عنده .

(ثم قال الجاحظ) وعبتم علينا إكفارنا إياكم واحتججنا عليكم بالقرآن والحديث ، وقلتم تكفرونا على انكار شيء يحتمل التأويل ، ويثبت بالاحاديث ؟ فقد ينبغي لكم ان لا تحتجوا في شيء من القدر والتوحيد بشيء من القرآن والحديث ، وان لا تكفروا احدا خالفكم في شيء ، وانتم اسرع الناس الى اكفارنا ، والى عداوتنا والنصب لنا اه . كلام الجاحظ

فانظر الى حججهم وحجاجهم ، واعتذار الخليفة وتشدد بالخوف على الاسلام من خصومهم ، تعلم أنه بلغ عقدهم بمذهبهم مبلغا لاغاية وراءه من التيقن والتصلب ، مع ان كل ماذكروه لايحل اضطهادهم لمخالفيهم ، اذ الرأي انما يدفع بالحجة والبرهان ، لا بقوة السلطة والسلطان .

واعجب ما جاء في كلام الجاحظ قوله « وعبتم علينا اكفارنا اياكم

(١) يعني الامام احمد ايضا

ـ الى قوله ـ : وانتم اسرع الناس الى اكفارنا ، اذ يدل ان الشدة والمداء والحدة أصارت الفريقين الى استحلال ايقاع كل بالآخر ما يستطيعه من ضروب الايذاء بالقول والفعل ، حتى صار يخيل للمرء ان ذات هذه المذاهب من شأنها ان تملأ قلوب ذويها بغضا ونفارا من مخالفيها ، وانها منبت للإحن ، ومصدر للمحن والفتن . ولقد اثر هذا النبذ في اتباع الفريقين تأثيرا لم تحمد عقباه ، اذ لا تمحوه من انفس كل منهم كرور الايام ولا مرور الاعوام ، ما دام يقرأ في زبر كل فريق خلاف عقد الآخر ، والتشنيع عليه ، ولم ينج من هذه الحفائظ والشحناء الا من نفض غبار التقليد ، وأوى من الاجتهاد الى ركن شديد .

ولقد يعجب المرء من (احمد ابن ابي دؤاد) وله من وفرة العقل وكبر الفهم والنبل ، ما اصاره [illegible] اخباره في مثل تاريخ ابن خلكان ، ومع ذلك [illegible] ، ويسعى لديهم بما يعجل نكالهم ، وقد اثر عنه من ذلك ما شوه وجه حياته ، وكسف شمس فضائله ، فقد بلغ به التعصب لمذهبه ما أصاره يؤذي من أهل مذهبه من يخالف بعض مسائل منه . ومن ذلك ما حكاه ابو الفرج الاصفهاني في كتاب الأغاني في اخبار سعيد ابن حميد البغدادي الكاتب الشاعر المشهور ان اباه كان وجها من وجوه المعتزلة فخالف احمد بن ابي دؤاد في بعض مذهبه ، فاغرى به المعتصم ، وقال إنه شعوبي [1] زنديق ، فحبسه مدة

---

(١) في الاساس : فلان شعوبي ومن الشعوبية ، وهم الذين يصغرون شأن العرب ، ولا يرون لهم فضلا على غيرهم : والشين مضمومة . وفي التاج : قال ابن منظور : وقد غلبت الشعوب بلفظ الجمع على جيل العجم حتى قيل لمحتقر امر العرب =

طويلة ، ثم بات براءته له او للواثق بعده ، فخلى سبيله . وكان شاعرا ايضا ، فكان يهجوا احمد بن ابي دؤاد بقوله :

لقد اصبحت تنسب في إياد • بأن يكنى ابوك ابا دُؤاد
فلو كان أسمه عمرو بن معدي • دعيت الى زبيد أو مراد
لئن افسدت بالتخويف عيشي • لما اصلحت عيشك في إياد
وان تك قد اصبت طريف مال • فبخلك باليسير من التلاد

هذا ما قصه الاصفهاني . وبه يظهر مبلغ تعصب ابن ابي دؤاد في مذهبه ، حتى صار يستحل لاجله الوشاية والسعاية بالابرياء والاتقياء ، ولقد آذى بذلك نفسه فاصبح ممقوتا عند اهل الفضائل على كثرة مناقبه ، حتى قال عنه الذهبي في الميزان جهمي بغيض .

وحكى السبكي في ترجمة محمد بن الحسن البحاث من كبار قضاة الشافعية : أن الصاحب بن عباد عرض عليه مرة القضاء ، على شرط انتحال مذهبه – يعني الاعتزال – فامتنع وقال : لا ابيع الدين بالدنيا : فتمثل له الصاحب بقول القائل :

فلا تجعلني للقضاة فريسة • فان قضاة العالمين لصوص
مجالسهم فينا مجالس شرطة • وايديهم دون الشصوص شصوص [٢]

= شعوبي اضافوا الى الجمع لغلبته على الجيل الواحد كقولهم انصاري اهـ وللامام ابن قتيبة كتاب في الرد على الشعوبية سماه (كتاب العرب) ظفرت بكراريس من أوله مخطوطة ، وقد نشرناها في مجلة المقتبس في الجزء (١١) من المجلد (٤)

(٢) جمع شص (بالكسر) حديدة عقفاء يصاد بها السمك (وبفتح) والشص اللص الحاذق اهـ قاموس

فأجابه البحاث بديهة بقوله :

سوى عصبة منهم تخص بعفة • ولله في حكم العموم خصوص
خصوصهم زان البلاد وانما • يزين خواتيم الملوك فصوص

وهذا ايضا مما يستنكر من مثل الصاحب ، وهو ما هو . ولقد قال عنه الثعالبي في اليتيمة : ليست تحضرني عبارة ارضاها للافصاح عن علو محله في العلم والادب ، وجلالة شأنه في الجود والكرم ، وتفرده بغايات المحاسن ، وجمعه اشتات المفاخر ، الخ . ومع هذا فهو يحول دون ذوي الكفاءة في القضاء الا بتقليدهم مذهبه ، ولكن لاعجب مادامت مسائل المذاهب صارت عند مقلديها عقائد ، والمقلد لا يرفع لسوى عقيدته رأساً ولا يقيم لغيرها وزناً ، ولا يعير لمخالفه اذناً ، وبالله التوفيق

وقد اشار لضروب اضطهادهم وما [illegible] ارهم ، الامام تقي الدين ابن تيمية رحمه الله ، في خلال فتوى له بقوله : وقد اشتهر الامام احمد بمحنة هؤلاء الجهمية فانهم اظهروا القول بانكار صفات الله تعالى وحقائق اسمائه ، وان القرآن مخلوق ، حتى صار حقيقة قولهم تعطيل الخالق سبحانه وتعالى ، ودعوا الناس الى ذلك ، وعاقبوا من لم يجبهم اما بالقتل واما بقطع الرزق ، واما بالعزل عن الولاية ، واما بالحبس والضرب ، وكفروا من خالفهم ، فثبت الله تعالى الامام احمد حتى اظهر الله به باطلهم ، ونصر اهل الايمان والسنة عليهم ، واذلهم بعد العز ، واخملهم بعد الشهرة ، واشتهر عند خواص الامة وعوامها : ان القرآن كلام الله ، غير مخلوق ، واطلاق القول ان من قال انه مخلوق فقد كفر اهـ وما كان اغنى الفئتين عن الغلو والفتون ، فانا لله وانا اليه راجعون (لها بقية)

الاسلام وحرية العقيدة
وكتاب الدعوة الاسلامية

أرسل محمد صمدي بك مكاتب جريدة اقدام التركية في لندن مقالة الى جريدته في الآستانة اقتبسها عن فصل لمجلة (الشرق الادنى) الانكليزية نشرته بمناسبة صدور كتاب الاستاذ ارنولد الذي سماه «الدعوة الاسلامية «The Preaching of Islam» ونحن نترجم هذه المقالة عن جريدة اقدام وهذا نصها :

«كان للكتاب الجديد الذي أصدره الاستاذ (ارنولد) وقع عظيم عند الراغبين في درس أحوال العالم الاسلامي . لانه بينا كانت الكتب التي سبق انتشارها بشأن الشريعة الاسلامية وصاحبها مملوءة بالاكاذيب والاغلاط اذا بكتاب الاستاذ (ارنولد) قد كشف النقاب عما فيها من البهتان بما امتاز به كتابه من التحقيق

وقد أبان لنا هذا الكتاب أحوال الاسلام منذ ظهر في أم القرى الى أن عم أقطار الدنيا فكان دينا عاما للناس أجمعين ، وان فيه من الفصول النافعة عن كيفية انتشار الاسلام بين الشعوب [illegible] أن [illegible] الدين

وان الاستاذ ارنولد قد محص بكتابه وبلاغته وحكمته تلك الفرية التي اخترعها بعض المسيحيين المتعصبين عن انتشار الاسلام بالسيف في بدء ظهوره حتى قال في رد ذلك : « ان الاسلام لم يستعن بالسيف بقدر ما استعانت النصرانية بالنار والنال »

ثم قال : « وان (خرافة السيف) هذه التي يذكرها المتعصبون من النصارى بجدة وتحمس ليس لها أصل في الحقيقة لان التقاليد التي جرى عليها الاسلام والحكمة العامة التي جاء بها القرآن دائرتان حول تعويد البشر السلام والصلاح . والاسلام دين من السهل نشره وقد أرشد محمد (صلى الله عليه وسلم) كل المسلمين الى ضرورة السعي لهذه الغاية بتعليمه اياهم أن يعلموا غيرهم مايعلمونه . وهذه الهداية النبوية قد عملت في نشر الاسلام مالا تعمله قوة السياسة والجيش . ونحن نرى الآن كيف أن الحكومات الاسلامية كلها أشرفت على الهلاك ومع ذلك كان الاقبال على الاسلام أعظم من الاقبال على أي دين آخر ، والداخلون فيه يزداد عددهم يوما بعد يوم ، وهذا يظهر للباحث من النظر في أبسط الاحصائيات ، وفي هذه الامور مايدلنا على أمر قطعي وهو أن الاسلام قام على أساس قوة حكمية معنوية لايحتاج معها الى قوة مادية لنشر دعوته

« ومما يدعو الى الحيرة والعجب أن كل انتصار كان للعرب في حروبهم وكل استيلاء كان لهم في فتوحهم لم يكن شيء منه في شكل « حرب دينية » الا أن هذا العمل العظيم الذي قام به العرب لم يكن مما يسر أولئك المسيحيين فصوروه بالصورة التي شاؤها له وتوجهت أنظار كل مؤرخيهم الى أن الاسلام انتشر بقوة السيف ، أما الوسائل الاخرى التي كانت للاسلام في انتشاره فكانت مجهولة عند أولئك المؤرخين

« الحقيقة ان الجيش العربي لم يطرق ديار فارس ويرالس ليغير دين سكانها ، بل ان مسألة الدين كانت آخر شيء يخطر على بال الجيش العربي

« الباعث الحقيقي على تلك النهضة العربية العامة هو أن هذه الامة الشجاعة النشيطة قد أحست وهي في البادية بحاجتها الى التبسط في الثروة والعمران فدفعتها هذه الحاجة الى تملك جيرانها وكان اندفاعها عاما ومنتظما وكانت حركته مسيرة بالتأثير الطبيعي الذي لتلك الحكومات الملهمة في المدينة المنورة ، وهذه الحكومة أسست بحكمة محمد (صلى الله عليه وسلم) وأصحابه الذين أخذوا الهداية عنه فعاش بها الاسلام الى اليوم وسيبقى هاديا رسميا عاما عالميا الى الابد » ونحن اذا نظرنا في الامر نظرة انصاف يتبين لنا ان انتشار الدين الاسلامي لم يكن ناتجا عن نهضة الجيش العربي الفاتح الظافر بل الذي ساعد على انتشاره الحالة النفسية التي كان فيها سكان البلاد المفتوحة

« وان نصارى الشرق بعد الفتح العربي كانوا متمتعين بحرية الدين الحقيقية الزاهرة الى حد ان النصارى الشرقيين كانوا يرجحون المعيشة في الادارة الاسلامية لما رأوا من أن الحرية المذهبية عند بني دينهم في الغرب كانت لفظا مجردا عن معناها الصحيح

« الدين الاسلامي دين منطقي فطري منزه كل التنزه عن الاساطير والخرافات ، وهو قائم على الاحكام الصادرة من أرباب العقول السليمة بدون غرض ولهذا صار الاسلام مقبولا في كل الاقطار »

***

ومن الناس من يزعم أن الاسلام ليس دينا اجتماعيا ولكن الاستاذ ارنولد يدحض هذا الزعم بقوله : « الاسلام دين عملي جاء بالهداية الحكيمة لكثير من الفلاسفة والشعراء والعلماء الآلهيين والحكماء . وقد مر على هذه الارض زمان كادت تختنق فيه بظلمة الجهل فأدركها الاسلام بمدارسه الجامعة ، ومن ذا الذي ينكر الفوائد العظمى التي نالتها أوربا من هذه المدارس الاسلامية ومما بثته الينا من العلوم والفلسفة ؟

« واذا شاء القارئ دليلا أعظم من هذا نقول له حسب الاسلام أن يكون منزها

عن نقيصة الرهبانية وعن مهنة التبشير والرئاسة الدينية ، أما الدعوة الى الاسلام فهي واجبة على كل مسلم لا في مقابل أجرة من متاع الدنيا كما هي الحال في النصرانية بل في سبيل الله ولله ، والفرق بين الدعوتين ظاهر

« وان الدعوتين تظهران بما لهما من الاثر في أفريقية ، فالدعوة الى الاسلام يقوم بها هناك التجار المسلمون وان لهؤلاء التجار فضلا حقيقيا في القضاء على تجارة الرقيق كما أن لهم الحصة الغالبة في نشر الاسلام . وانما يقاومون عادة الرق لانه يؤلمهم أن يباع اخوانهم المسلمون كما تباع السلع . ويرون هذا منافيا لرابطة الإخاء ، ولذلك كان النجاح الحقيقي في منع الرق من أفريقية من نصيب الاسلام

« وكذلك اذا أردنا أن نقول الحقيقة بشرف وانصاف فلا بد من القول بأن الذي علم الزنوج مزية النظافة والقناعة والاخلاق الانسانية هو الاسلام أيضا ، ولهذا كان الاسلام جديرا بما كان له في الاقطار الافريقية من الحب في القلوب والاقبال عليه من الجميع والنظر اليه بأنه معجزة خارقة »

ومن الناس من قال ان الاسلام دين لا تدخل فيه الا الامم التي في الشرق المتوسط وذلك لما يرونه في هذا الدين من الاحكام القاضية التي تنافي مبادئ المدنية فكان جواب الاستاذ أرنولد عن هذه التهمة بما يأتي :

« ان في هذا القول مغالطة وهو مخالف للواقع لان الاسلام قد انتشر في الصين وبلاد المغول والتتر وفي الامم الكثيرة في شرق آسيا وفي وسطها وهؤلاء يعدون بالملايين وفي كل يوم تنضم اليهم ألوف جديدة من الناس » اه

ذلك هو كتاب المستر أرنولد الذي نشره حديثا فأبان به أسباب ارتقاء الاسلام وتقدمه ذاكرا ذلك بلسان نزيه وانصاف عال

ويقول الكاتب الفاضل المستر « وليم مكسويل » الذي صدق على هذه المسائل : « ان الحالة السيئة التي وصل اليها العالم الاسلامي لا عار فيها على الاسلام مطلقا . والسبب الحقيقي لتدني المسلمين هو أن الاتراك المهيمنين على الاسلام في هذه الايام بينما كان يجب عليهم أن يأخذوا بروح الهداية الاسلامية والمعاني القرآنية تركوا كل هذا وانصرفوا الى الالفاظ والاشكال وصاروا يهربون من الارتقاء والتجدد والحياة في صغير أمورهم وكبيرها »

وان الذي يقرأ كتاب الاستاذ أرنولد باهتمام خاص يجد فيه الاسباب التي تنعش الاسلام وتبث فيه روح الحياة » انتهى المؤيد

(المنار) : ان (أرنولد) من فضلاء الانكليز المستقلين في رأيهم، المنصفين في حكمهم، الذين قلنا أن عددهم في الاوربيين لايحصى، وهو قد عاشر المسلمين في الهند واطلع على كثير من كتبهم، فلم يأخذ علمه بالاسلام عن دعاة النصرانية ولا عن رجال السياسة الذين قلنا فيهم إنهم يعشون أعين الانصاف من أقوامهم بما يشوهون به الاسلام . وكتابه هذا ليس جديدا بل ألفه منذ أعوام، وربما نشر بالطبع نشرا جديدا

كتب الرجل كتابه على بصيرة وعلم يزينهما الانصاف فقل غلطه في اخباره وفي آرائه أيضا . فما يخطئه به كل مسلم قوله — بحسن النية وقصد المدح — « ان احكام الاسلام صادرة من أرباب العقول السليمة بدون غرض» على أنها عبارة يمكن تفسيرها تفسيرا صحيحا بأن الاحكام الاسلامية المستنبطة من الكتاب والسنة انما استنبطها علماء عقلاء اتبعوا فيها الحق والمصلحة لا الأغراض والاهواء . وانما تخطئ ما يتبادر الى الافهام من أن مراده بما ذكر أصل الاسلام من كتابه وسنة الداعي اليه صلى الله عليه وسلم، وأن ذلك كان نتاج عدة عقول سليمة . ومن لم يؤمن بالوحي لامندوحة له عن مثل هذا الرأي . وكذلك قوله « ان مسألة الدين كانت آخر ما يخطر في بال الجيش العربي الفاتح» [illegible] والصواب عندنا ان [illegible] الاسلام كانت أول ما يخطر في بال اولئك الفاتحين ولكن بدون اكراه ولا اجبار، فكانوا يعتقدون ان فتحهم البلاد وحماية حرية الدين فيها مع العدل والمساواة هو الذي يظهر لأهلها المستعدين للتمييز بطلان ماقلدوا فيه سلفهم، وحقيقة ما عليه الفاتحون لبلادهم، فكان لدخول الناس في الاسلام افواجا سببان (أحدهما) ما كانت عليه الشعوب التي فتح العرب بلادها من الخرافات والتقاليد الباطلة (وثانيهما) ما رأوه من فضائل العرب وعدلهم وحريتهم وحقيقة دينهم، فكانت حالهم النفسية أعظم داع الى دينهم الحق، واقتصر هو على السبب الاول.

نعم انه أصاب في قوله : إن فتوحاتهم ما كانت دينية بالمعنى الذي يفهمه الاوربيون، وهو التنكيل بالمخالف او يرجع عن دينه . فهذا المعنى ما خطر في بال أحد من فاتحي العرب في وقت ما ولا يبيحه الاسلام . وأما قوله ان الاسلام لايحتاج الى دعاة ومبشرين فهو انما يصح اذا أقامه أهله تاما وقد صار جمهور أهله منحرفين عن هدايته العليا بالفعل، ودعاة النصرانية يهاجمونه بالتضليل والافك، فقد وجب ان يقوم طائفة من المسلمين كيف يدعون اليه ببيان حقيقته، وكيف يدافعون عنه باظهار أباطيل خصومه.

واما قول (وليم مكسويل) ان سبب ضعف المسلمين هو ترك الترك لروح هداية القرآن فهو وان أقره مكاتب القدام وادارة تحريرها من الترك يحتاج الى شرح طويل

المرأة قبل الاسلام و بعده

مقال في مسألة تعدد الزوجات نشره بالانكليزية في اوربة السيد أمير علي العلامة المصري الشهير بدفاعه عن الاسلام وترجمه بالعربية أحمد افندي نجيب ونشره في المؤيد . وهذه ترجمته :

١

في قرون التطورات الاجتماعية الاولى كان تعدد الزوجات أمرا لامناص للعالم منه البتة . ذلك لان حروب القبائل التي ما كانت تهدأ نائرتها قط . والنتائج الطبيعية اللازمة لذلك من نقص عدد الذكور وزيادة عدد النساء أوجدت بالضرورة تلك العادة التي تعتبر بحق في أيامنا هذه احدى الآفات التي لابد للعالم من التخلص منها

فاذا تصفحنا تاريخ الامم الشرقية في تلك العصور الخوالي وجدنا تعدد الزوجات عادة مألوفة ومتبعة ولقد زادها ثباتاً ورسوخاً بين الناس حينئذ ما كان من أمر ملوك ذلك الوقت الذين [illegible] فانهم بما كان لهم من هذه السيطرة الكبرى [illegible] تلك العادة [illegible] وذلك بتزوجهم هم أنفسهم بأكثر من امرأة واحدة . فاذا تتبعنا تاريخ الهندوس مثلا وجدنا أن تعدد الزوجات عندهم عادة متبعة من قديم الزمان شأنهم في ذلك شأن البابليين والاشوريين والفرس فانهم هم أيضاً لم يكن عندهم حد يقفون عنده في الزواج ، واذا تتبعنا تاريخ الامم والشعوب الاخرى وجدنا أن الطبقة العليا من البراهمة حتى في هذه الازمنة الحديثة تتزوج بما تشاء من النساء من غير حرج .

وهكذا كان شأن الاسرائيليين قبل موسى وبعده فان شريعة ذلك النبي لم تصادم مع تلك العادة بل تمشت معها في طريقها القديم . نعم ان تلمود بيت المقدس (كتاب تقاليد اليهود) نص على أنه لا يحق لرجل أن يتزوج بأكثر من العدد الذي في استطاعته أن يعول أمره ، وأن (الربانيين) قرروا فيما بينهم أن الرجل لاينبغي أن يتزوج باكثر من أربع نساء ، ولكننا نرى (القرائين) منهم لايذهبون مذهبهم ولا يقبلون تحديد ما

أما الفرس فقد كان دينهم حينئذ يعد من يتزوج بأكثر من امرأة يحسن الجزاء . وأما الفينيقيون فقد انحط الزواج عندهم الى درجة الفحش بمعنى ان الرجل أصبح يتخذ ما شاء من النساء بغير حرج . وأما شعوب تراسيا وليديا وبلاسجيا - تلك

الشعوب التي قطنت في أماكن شتى من أوروبا وغربي آسيا . فقد بلغت عادة تعدد الزوجات عندهم حداً يقصر عنه الوصف

هذا ما كان من تعدد الزوجات في الشرق القديم . وأما الغرب فقد كانت منزلة المرأة في (أثينا) مهد المدنية والحضارة منه كمنزلة المتاع تعرض في الاسواق وتنقل من يد الى يد ، وبالجملة يحق عليها كل ما كان يحق على أثاث البيت الصرف . كان الاثينيون فوق ذلك يعتبرون المرأة شيطاناً لا غنى عنه في ترتيب المنزل وتربية الاطفال ، وكان يحق للرجل منهم أن يتخذ ما شاء من النساء بغير حساب ، وأما الشارع في اسبارطه فان كان لم يأذن للرجل باتخاذ أكثر من زوجة الا في ظروف مخصوصة - فقد أجاز للمرأة أن تتخذ أكثر من بعل واحد

هذا ، وأما الدولة الرومانية فانه يحتمل أن الظروف المخصوصة التي تكونت فيها هذه الدولة أبت أن تجعل تعدد الزوجات مشروعاً في بدء حياتها ، ومهما يكن من أمر حكاية اغتصاب نسوة الصابين المشهورة وقيمتها التاريخية فلا ريب عندي أن وجود هذه الحكاية وتناقلها من السلف الى الخلف من شأنه ارشادنا صراحة الى الاسباب التي ساعدت على وضع تلك القوانين الاولية للزواج في الدولة الرومانية رغماً من بقاء عادة تعدد الزوجات في البلاد المحيطة بها (رومية) من كل جانب ، خصوصاً بين الاترسكانيين . ولقد كان نتيجة اختلاط الرومانيين مدة قرون مع بقية شعوب ايطاليا والحروب والفتوحات التي وقعت حينئذ كذلك ، وكل ما كان من أمر الابهة والفخفخة التي جاءتهم على أثر نجاحهم في الاستعمار - كان نتيجة ذلك كله أن سقطت منزلة العقود الزوجية المقدسة وأصبح الرجال يعيشون مع النساء بغير عقد أو كتابة يعني ان النساء جميعاً أصبحن في منزلة السراري والحظايا . ومما زاد هذه الحالة قوة وثباتاً ما كان من أمر قوانين البلاد التي اضطرت الى الاعتراف بهذه الحالة رسمياً - فالحرية المطلقة التي أعطيت للمرأة حينئذ ، وضياع ذلك الرباط الذي كان يربطها بالرجل ، والحالة الناشئة عن ذلك من استبدال الرجل لنسائه أو نقلهن من يد الى يد - كلها أمور تدل صراحة على وجود عادة تعدد الزوجات بالفعل ، وان وجدت تحت اسم مستعار

هذا وبينما هذه الامور جارية على ما بينا في الغرب كانت المسيحية قد ظهرت في الشرق وبدأ نورها يتألق في أفق العالم الروماني بأسره ، ولا ريب ان هناك أسباباً كثيرة منها الروح وتأثيرها على تعاليم المسيح قد حدت (بنبي الناصرة) الى أن يضع من

قيمة الزواج مطلقا وان لم يحرمه أو يأمر بنعه على أي شكل كان

على أن تعدد الزوجات بقي بالرغم من ذلك كله جاريا مجراه الاصلي في البلاد الرومانية الى ان جاء جوستنيان فوضع القوانين لابطال هذا التعدد ، ولكن هذا الابطال الذي جاءت به تلك القوانين لم يؤثر تأثيره المطلوب وبقي تعدد الزوجات معمولا به وشيئاً الى ان استنكرته الهيئة الاجتماعية الحديثة فأبطلته

واذا أردنا أن لا نتوسع في ذكر ماضمنته تلك القوانين في معاملة النساء اللواتي سبق زواجهن برجل واحد نقول : انها خصت المرأة الاولى بكل الميزات ، وأبقت النساء الاخرى في أشد حالات التعاسة والشقاء ، وزد على هذا ان أولادهن يحرمون من ارث أبيهم ومن كل حق اجتماعي آخر

واه يجمل بنا في هذا المقام أن نلاحظ ان تعدد الزوجات بالصورة التي ذكرناها آنفا ما كان خاصاً بالطبقة العليا من الشعب في (رومية) بل تعداها الى كل الطبقات ولم يستثن من ذلك طبقة رجال الدين الذين نبذوا أقسام العزوبة التي أقسموها وأصبح الرجل منهم يجمع في بيته أكثر من امرأة شرعيات كنّ أو غير شرعيات

وان التاريخ ليثبت أن تعدد الزوجات ما ظل مستمرا الى وقت قريب جداً ولقد ذكر (سنت أوغستين) نفسه أن ليس في تعدد الزوجات من اثم أو عيب مطلقا وقال انه مادامت شريعة البلاد تبيح تعدد الزوجات فلا شيء في ذلك بتاتا . وقال (هلم) ان المصلحين الالمانيين أقروا على صلاحية الجمع بين امرأتين أو ثلاث اذا كانت المرأة عاقراً أو اذا كان فيها مايماثل ذلك من النقص ، وقال بعض أصحاب الرأي من الاوربيين أيضا انه لاعيب مطلقا في تعدد الزوجات وان المسيح نفسه لم يصرح قط بابطال هذه العادة . ولقد استطرد هؤلاء المفكرون الى القول بان وحدة الزوجية المنتشرة في اوروبا الآن هي عادة من عوائد الالمانيين أو الرومانيين الافريق ، وهذا قول يخالف الواقع والتاريخ . ذلك لان هؤلاء القوم استدلوا على صحة قولهم بشهادة اثنين من كتاب الرومان ولكن هذه الشهادة ـ على كونها لم تثبت ـ لم يعززها كتاب آخرون . فان هذين الكاتبين مشهوران بطمس معالم الحقائق اتباعا لأهوائهما . والواقع انا اذا تتبعنا مع (تاسيتس) ـ وهو أحد هذين الكاتبين ـ فيما زعمه عن وحدة الزوجية بين الالمان ـ فانا نرى أنفسنا امام حقيقة تاريخية تفسد عليه زعمه ، وهذه الحقيقة ذكرها أغلب المؤرخين وهي وجود أثر من آثار تعدد الزوجات القديمة في الطبقة العليا من الالمان في القرن التاسع عشر .

الحقيقة ان (تاسيتش) اراد من ذكر هذه الاكذوبة في كتابه (أخلاق الالمان) استفزاز عواطف بني وطنه الرومانيين لمجاراة الاخلاق الموهومة لجيرانهم الالمانيين ليصلحوا من شؤونهم و يعفوا عن الشهوات واتخاذ السراري والخليلات .

هذا واذا استأنفنا البحث عن تاريخ تعدد الزوجات في الدولة الرومانية وجدنا ان هذه العادة كان معترفا بها في أواخر الجمهورية وفي بداية الامبراطورية وان الاعتراف بهذه العادة ظاهر من المنشور الذي أذاعه القانون بأمر الحكومة حينئذ لابطال هذه العادة ولكن هذا المنشور لم ينجح نجاحه المطلوب فيكفينا لاثبات ذلك ان الامبراطرة (هنار يس واركاديوس) اللذين حكما في نهاية القرن الرابع، و(قسطنطين) وولده في بعده ، لازموا العادة القديمة . على أن (تلانتين الثاني) أصدر منشوراً بعد ذلك أيضاً اذن فيه لمن يريد من الرعية أن يتزوج بعدة نساء، وليس في تاريخ الكنيسة مايدلنا على أن رجال الدين عارضوا هذا القانون بل بقي معمولا به لدى من خلفه من الامبراطرة حتى جاء (جوستنيان) كما أسلفنا فأعاد منعها . ومن العبث أن يظن أن هذه القوانين الجديدة وضعت تطبيقا لاحكام دينية مسيحية فان أكبر مستشاري هذا الرجل (جوستنيان) [illegible] ومع ذلك فان هذه القوانين لم تحول ذلك التيار الجارف [illegible] إلا أنها كانت فاتحة حياة فكرية للعالم الجديد. واذا كانت وحدة الزوجية قد انتشرت في أوروبا الآن فليس ذلك نتيجة من نتائج هذه القوانين وغيرها وانما هي نتيجة عمل تفكيري محض انتهى اليها المجتمع الجديد بعد تجاريب عدة من القرون

٣

بعد أن بينا في مقالنا السابق تاريخ تعدد الزوجات في العالم باسهاب نعود اليوم فنذكر أن أكبر غلطة يرتكبها الكتاب المسيحيون في هذا العصر هي ما يزعمونه من أن محمدا (صلى الله عليه وسلم) هو أول من شرع تعدد الزوجات للخلق وأجازه لهم . نعم انه بطل اليوم رأي القائلين بان محمدا هو أول من أوجد تعدد الزوجات في العالم وأول من قال به ، لا لأن هذا الرأي قد ظهر انه مخالف للحقيقة والتاريخ فقط ، بل لان من يقول به لا يلصق بنفسه تهمة الجهل الفاضح باساس هذه المسألة الاجتماعية القديمة — أقول نعم أنه بطل اليوم هذا الرأي ولكن زعمهم أن النبي أجاز هذه العادة وصرح بها كما ذكرنا ما زال مذهب المسيحيين عموما والمتعلمين منهم

خصوصا ولسنا في حاجة الى القول بأن هذا زعم فاسد باطل كما سنبينه بعد ٠

أن محمدا (ص) وجد تعدد الزوجات عادة معمولا بها بين قومه كما وجدها معمولا بها في كافة الاصقاع المجاورة لبلاده· ثم ان الامبراطورية المسيحية حاولت بما وضعته من القوانين أن تضع حدا لتلك الحالة المحزنة كما ذكرنا في الفصل السالف ولكن نتيجة هذا العمل كانت على غير ما يراه أصحاب هذه القوانين ، فان تعدد الزوجات سار في تياره القديم غير انقطاع ، ونساء الرجل الواحد خلا الاولى منهن بقين على حالتهن الاولى من التعاسة والشقاء

أما في بلاد الفرس فقد كان سقوط الآداب وانحطاطها حوالي الوقت الذي ظهر فيه النبي امرا موجبا للدهشة والحزن معا ، فانه لم يكن ثم قانون للزواج مطلقا . واذا كان ثم قانون من هذا القبيل فقد كان مهملا وغير معمولا به أصلا. ولما كانت قوانين البلاد لم تحدد على كل حال العدد الذي يقف الرجل عنده في الزواج كان من أمر الفارسيين أن استمرؤا هذا المرعى الخصيب وصار الرجل منهم يتخذ ما شاء من الزوجات، زائدا على السراري والخليلات (روليجر صحيفة ٤٠٦)

ولقد كان بين العرب الاقدمين واليهود عدا ما تقدم عادة تعدد الزوجات عادة أخرى هي الزواج بشروط مخصوصة ، وكذا الزواج لمدة معينة ، ولا ريب أن وجود مثل هذه الحالة في شبه جزيرة العرب كان من شأنه تحطيم وجود الامة الاجتماعي بأسره ، الا ان الله قيض لها من يرفع شأنها ويأخذ بيدها من هذه الوهدة ، جاء النبي صلى الله عليه وسلم ورفع من شأن المرأة فارتفع البناء الاجتماعي بأكمله

لقد كان مركز المرأة بين اليهود والعرب في أقصى دركات الانحطاط، فقد كان شأن الموسوية في بيت أبيها شأن الخادمة · كان والدها يستطيع أن يبيعها بيع السلع، وكان اخوتها يستطيعون ان يتصرفوا فيها كما يشاءون بعد موته ، وأنكى من ذلك انه كان لا يحق لها ارث أبيها الا اذا لم يكن له خلف من الذكور · أما بين العرب الذين كانوا كثيري الاحتكاك بجيرانهم المتحضرين فقد كانت قيمتها عندهم قيمة المتاع الصرف ، أي كانت المرأة جزءاً من أملاك الوالد أو الزوج، ومن ترمل من نساء الآباء تصبح فيما بعد من نساء الابناء بحق الارث . ومن هنا نعلم معنى كلمة (نكاح المقت) التي ذكرتها الشريعة الاسلامية في شأن من يتزوج من الابناء بنساء الآباء حينما حرمت على العرب تلك العادة . ولقد بلغ من كراهية هؤلاء القوم للاناث من أولادهم أنهم

كانوا يحرقونهن(١) احياء. وهذه العادة أبطلها النبي كما أبطل عادة ذبح الأطفال ضحية للآلهة هنا ـ أما في امبراطوريتي الفرس و بزانطية فقد كان شأن المرأة من الانحطاط شأنها في كل جاورها من البلاد. وانه في ذلك الوقت الذي كان فيه البناء الاجتماعي للعالم ينهدم من كل جانب ـ في ذلك الوقت الذي أخذت فيه الصيحات ترتفع من كل فج طالبة الاصلاح الحقيقي للمجتمع ـ في ذلك الوقت الذي اقتنع فيه العالم كافة بنقص القوانين والشرائع الموجودة حينئذ ـ أقول في ذلك الوقت العسير جاء النبي باصلاحاته وأخذ يدعو الناس الى العمل بها. وان من يتأمل في تلك الاصلاحات يرى ان (احترام المرأة) ركن من اركانها الهامة، وعماد من عمدها القوية، وانه ليكفينا ان نبرهن هنا على تأثير هذه التعاليم الجديدة في اخلاق من تبع هذا النبي الكريم من العرب بما كان من احترام هؤلاء القوم لابنته وحبهم لها حبا جعلهم يلقبونها بسيدة الجنة وسيدة النور. وهذا تحول غريب بالنسبة لمقام المرأة وتغير مستقدم فيها.

ولا ينبغي ان ننسى مع ذلك ان تأثير هذه التعاليم في أخلاق النساء أنفسهن قد أكسبهن ذلك الاحترام، فن ذا الذي يجهل ذلك الطهر والعفاف اللذين كانا يتوجان فاطمة الزهراء ? [illegible] من النساء الفضليات

هذا وان من الشرائع التي جاء بها النبي في شأن النساء ما كان من ابطاله عادة التزوج بشروط، وانه إن يكن قد أباح الزواج الموقت أولا فانه حرمه في العام الثالث من الهجرة، ولقد أعطى النساء فوق ذلك حقوقا ما كانت لهن من قبل، وأهم تلك الحقوق ما كان من مساواته لهن بالرجال في تقلد وظائف القضاء بين الناس، زد على هذا أنه قيد عادة تعدد الزوجات بقيود هي عين النهي المطلق، فانه ـ على كونه خفض عدد النساء اللاتي يصح للرجل التزوج بهن معا الى أربع فقط ـ قد اشترط لذلك المساواة التامة بينهن تطبيقا للآية الشريفة (فان خفتم أن لا تعدلوا فواحدة) ولقد كانت هذه الآية التي تلت آية الاذن بالتزوج بذلك العدد(٢) موضوع بحث المفكرين من علماء الاسلام في العالم أجمع، فان العدل والمساواة بين النساء ليس معناه المساواة بينهن في المأكل والملبس فقط، بل يقتضي المساواة في الحب(٣) والاخلاص لهن جميعا، ولما كانت المساواة في مسائل الشعور والاحساس هي عين المستحيل يكون هذا الشرط في منزلة المنع التام للتزوج بأكثر من امرأة واحدة. ولقد أخذ بهذا الرأي قبلا

(١) المنار : المعروف انهم يدفنونهن (٢) الصواب ان هذا الشرط جاء بعد الاذن في آية واحدة (٣) العدل في الحب لا يجب لانه ليس اختياريا وهلا استدل بقوله تعالى « ولن تستطيعوا ان تعدلوا بين النساء »

طائفة المعتزلة في أيام حكم المأمون ، وعلموا الناس ان الاسلام يقضي بالزوج بامرأة واحدة . والا ان تكن المطاردات العنيفة التي طاردهم بها (المتوكل) قد وقفت انتشار هذه الآراء الصائبة في العالم الاسلامي ، فلا ريب في أن الطبقات المستنيرة من المسلمين ظلت تعتقد أن تعدد الزوجات مخالف لتعاليم دينهم الكريم ، كما هو مخالف المجتمع المدني الحديث

ان تعدد الزوجات تابع على كل حال لتطورات الزمان ، ففي ظروف مخصوصة وفي احوال اجتماعية مخصوصة يكون تعدد الزوجات كما ذكرنا في أول الفصل السالف لازما ويحتم الوجود لحماية النساء من الفقر الذي يجلب معه كل رذيلة . والواقع اننا اذا استقصينا أسباب انحطاط الآداب المخيف في عواصم أوربا المتمدنة فاننا لانجد لذلك سببا أقوى من هذا الفقر المدقع الذي يدفع النساء الى ركوب هذا المركب الخشن والانتهاء الى بؤرات الفساد حيث يمس أعراضهن ابتداء الموت والبأس . ولقد قال (الا بامول والسيدة دوق غوردون) : ان هذه الاحوال المخصوصة مجردة عن كل اعتبار ديني تدفع الناس في الشرق الى التزوج بأكثر من امرأة واحدة . ان تقدم الحركة الفكرية في العالم وتغير تلك الاحوال المخصوصة تدفعان بالناس الى إبطال هذه العادة والتبري منها الآن ، ولذلك نرى ان تلك البلاد الاسلامية التي زالت منها تلك الاحوال المخصوصة أصبح أهلها ينظرون الى هذه العادة بعين السخط فعلا ، ويعدونها مخالفة للشرع والدين تماما ، وأما البلاد التي ما زالت فيها أحوال المجتمع على نقيض ذلك فان تعدد الزوجات فيها باق ولازم البقاء حتما

ورب معترض يقول : ان عبارة الشرع في هذا الموضوع تحتمل تأويل الفقهاء واختلافهم ، وان تعدد الزوجات لايبطل الا الا بعد عناء طويل ، وان وراء العقبة الاجتماعية عقبة دينية أخرى . واننا مع اعترافنا بوجاهة هذا الاعتراض وانه يستحق في الواقع اعتبار المسلمين الذين يرغبون في تخليص دينهم من الشبهات نقول : ان موافقة القوانين أيا كان نوعها لاحوال كل زمان ومكان هو دليل نفعها وخيرها للناس ، وان قانون الزوجية الموجود في الآيات القرآنية الشريفة تنطبق عليه هذه الصفات تمام الانطباق ، فان ذلك القانون يوافق تمام الموافقة أحوال المجتمع المدني الحاضر كما يوافق أحوال المجتمع القديم ، فلا هو اذا يتغافل عن حاجات الانسانية الراقية ، ولاهو يتناسى أن ثم شعوبا وقبائل في الارض تجر عليها وحدة الزوجية أشد المصائب والآلام ، ففي الوقت الذي تفهم عبارة القرآن كما هو المقصود منها تماما ، وفي الوقت الذي تطبق تطبيقا

موافقاً لاحوال الزمان ، تزول هذه العادة وتمحي بلا صعوبة البتة . ولا ريب ان هذا الوقت الذي يمحص فيه المسلمون أقوال نبيهم محصا جديداً ويضربون عرض الحائط بتفاسير بعض رجال الدين ليس ببعيد شأوه

وان أوربا التي يذكر تاريخها ما كان من تصرف رجال دينها في كثير من العصور بأقوال كتبها كتصرف رجالنا تقيدنا لتقص هذه الاغراض الدينية أولى بها أن تنظر بصبر وتؤدة الى مساعي رجال ديننا الحديثين لاطلاق الافكار الحرة من أسرها القديم ، وتطبيقها تطبيقا يوافق الجيل الحاضر ، بدل ان تعجل علينا وعلى ديننا بصب الشتائم كل يوم . وان الوقت الذي تتحرر فيه الشريعة الغراء وتطلق من سجن وضعها فيه بعض رجالنا يصبح من السهل على الشارع في كل بلد اسلامي أن يضع قانونا يطبق فيه الشريعة السمحة على منع تعدد الزوجات . ولا ريب ان هذه النتيجة التي تبعث على الغبطة والسرور ستتحقق حتما بعد ان بدأ معلمو العالم المستنيرين بفحص كلام القرآن والنبي الكريم غير متأثرين بالافكار الجديدة التي ثبت فشلها الآن

وانه يسرنا ان نتيجة هذا الفحص هي على ما كنا ننتظر ، فان القول بوحدة الزوجة يرتفع اليوم في جوانب العالم الاسلامي

والواقع ان كراهة تعدد الزوجات وشعور الناس بضرره من الوجهة الاجتماعية ان لم يكن من الوجهة الأدبية قد أخذا بالمسلمين في الهند الى نزع هذه العادة من بينهم ، وأصبحت الشروط التي اتفق الناس هناك على وضعها في عقود الزواج انه لا يصح الاقتران بأخرى مع وجود الزوجة الاولى . وعلى ذلك ترى ان ٩٠ في المئة من مسلمي الهند يقتصرون اليوم على التزوج بواحدة ، وفي بلاد فارس لا يتعدى المتزوجون بأكثر من امرأة اثنين في المئة وان أملنا وطيد في ان علماء المسلمين يجتمعون في مؤتمر ديني ليقرروا فيما بينهم قاعدة منع تعدد الزوجات . اه

(المنار) بينا من قبل ان تعدد الزوجات خلاف الاصل في نظام الفطرة والشرع ولكن قد يحتاج اليه فاذا قل الرجال في بلد أو بلاد بالحروب أو المهاجرة فقد يكون من مصلحة النساء أولا والهيئة الاجتماعية ثانياً ان يتزوج الاغنياء الفضلاء القادرون على الانفاق والعدل بين النساء أكثر من واحدة لتقليل شقائهن وصيانتهن من الفسق ولتكثير نسل الامة . وقد يقع مثل هذه الضرورة لبعض الافراد . فأكمل الشرائع في هذه المسألة هي الشريعة الاسلامية التي تتسع لاباحة هذا الامر عند الحاجة اليه ومنعه عند توقع المفسدة منه . وقد ضيقت في شروطه بحيث تتعذر في غير حال الضرورة واقامة المصلحة دون

مجرد التمتع ، وأمثل طرق المنع الاشتراط في العقد على الأولى ان لايتزوج عليها ، وهو شرط يبيحه بعض الفقهاء ويدل عليه الحديث الصحيح . وللحاكم المسلم ان يمنع المباح الذي تخشى مفسدته

١ — سقوط مسقط * *

La chute de Mascate.

مسقط هي الثغر العربي البحري حاضرة بلاد عمان على حرف بحرها في عرض ٢٣ درجة و٢٧ دقيقة من الشمال وفي طول ٥٦ درجة و١٥ دقيقة من الشرق فيها نحو ٣٥ الف من السكان ومياؤها حسن وكان قد حصنها سابقاً البرتغاليون . وتجارتها مع بمبي وخليج فارس نافقة ، والميناء الصغير الذي يجاورها واسمه « مطرح » يعد من مرافقها وكان قد فتحها البوكرك في سنة ١٥٠٧ فامتلكها البرتغاليون الى سنة ١٦٤٨ ثم خرجت من أيديهم وتقلبت عليها الاحوال حتى أصبحت هدفاً للنفوذ الانكليزي الى هذه الايام الاخيرة جاءتنا الاخبار ان الانكليز احتلوها وعدت من أملاكهم . ولا بد من أن نعرض على القراء لمحة [illegible] منذ أقرب عهد الينا أي منذ عهد السيد سعيد بن سلطان [illegible] تشير الى هذا العهد . وقد استندنا في أكثر هذه الرواية [illegible] صاحب الرياض فنقول :

كان لمسقط في عهد السيد سعيد بن سلطان شان يذكر اصبحت فيه حاضرة إمارة كبيرة على سيف الخليج الفارسي تمتد على الثغور البحرية المجاورة لها حتى جزيرة البحرين التي لم يتغلب عليها مع أنه حارب أهلها أشد المحاربة . ومن الثغور التي كانت تضاف الى الامارة المذكورة (لنجة) و (بندر عباس) وما يجاورهما من البلاد الايرانية الواقعة على خليج فارس . لا بل امتدت أجنحة امارته الى ساحل شرقي افريقية مثل بلاد (لامو) و (ممباسة) و (الانقزيجة) و (بندر السلام) و (هنزوان) و (الجزيرة الخضراء) و (زنجبار وغيرها)

وكان قد أقام له حاضرتين وهما (مسقط) للبلاد الواقعة في بحري عمان وفارس (وزنجبار) للاقطار الافريقية . وعقد معاهدة مع والي البصرة ومثلها مع دولة الهند ليحافظ على استقلاله وأمور دياره حتى ان فرنسة أقرت له بلقب سلطان العرب أو أمبراطورهم وقد نالت رعيته من الرفاهية ورغد العيش مالم تنله تلك الاقطار في سابق الاعصار ، وكان له أسطول ذو حول وطول يمخر أبحر الهند وفارس وعمان .

* * منقولة بحروفها من مجلة لغة العرب البغدادية الغرّاء

بقيت تلك الدولة في نمو وزهو الى أن توفي السيد سعيد فانقسمت دولته بين أبنائه قسمين : شطر عربي وشطر افريقي ، فكان الشطر الافريقي نصيب السيد ماجد ومن بعده السيد برغش ووقع الشطر العربي حصة للسيد تويني الذي قتله ابنه السيد سالم ليستولي على سلطانه ، وما بدأ هذا الرجل بالقبض على زمام الامر الا واستعرت نيران الفتن واندلعت ألسنة اللهيب الى تلك الديار ولم تخمد الا بتغلب السيد تركي عليها وهو ابن السيد سعيد أخي السيد تويني . وبقيت الامور تجري في مجراها الى عهد السيد فيصل بن تركي السلطان العربي الحالي ، فتقاسم الانكليز والالمانيون تلك البلاد في معاهدات سنة ١٨٩٠ وأفضت ثغور فارس والبحرين والكويت الى حماية الانكليز . وهكذا أخذت البلاد تخرج من أيدي أصحابها .

ولما اخترع الافرنج البواخر وسيروها على متان البحار وشحنوها آلات جهنمية وبقي العرب على حالهم الاولى من اتخاذ السفن الشراعية أو ذوات القاذيف ضعفت قواهم في المحاربة وتأخروا عن سائر الامم التي كانت تزداد قواها بازدياد عدد بواخرها وبوارجها ومدرعاتها فاضطر أمير مسقط أن يحابي الافرنج والانكليز خوفاً من أن تفلت بلاده من يده [illegible] معارضة المتغلبين الطامحة أبصارهم الى ديارهم [illegible] الى منع بيع الاسلحة ثم الى غير هذه المطالب [illegible] الى الخروج عليه .

وأول من نفث في صدور الناس روح العصيان هو الشيخ عبد الله السالمي من (الشرقية) فانه دعاهم الى أن يبايعوه وقد كان بلده (ضنية) ومسكنه في بلد (القابل) الذي أميرها الشيخ عيسى بن صالح . وأول من بايعه هو هذا الشيخ وكانت المبايعة سرا . والغاية من هذا الخروج اقامة السيد فيصل (اماما شرعيا) على الاباضية في مسقط يكون نافذ القول والاحكام لاسلطانا ، ولهذا كتبا اليه كتاباً ليطلعاه على ما جال في فكرهما فأبى السيد فيصل قائلا انه « سلطان وامام معاً » وانه حر القول والفصل في مملكته يعمل مايشاء ويقول مايشاء .

فلما بلغ ذلك الخبر الى الشيخين امتعضا وانضم اليهما جمع شايعوهما في أفكارهما ثم طلبوا جميعهم الى السيد فيصل أن يقطع دابر الموبقات من مسقط وعمان وأن يمنع شرب المسكرات والدخان وتجول المبشرين في تلك البلاد ، الى غير هذه المطالب ، فأبى كل الاباء قائلا : ان الانسان خلق حرا ولا يحق لي أن أقيده بقيود

فلما رأوا انه رفض كل ماطلبوه منه اجتمع الشيخ عبد الله السالمي والشيخ عيسى

ابن صالح والشيخ عبد الله بن سعيد وعقدوا مجلساً خفياً في (مهاتم) من بني الرجعة (١) وقرروا أن يبعثوا الشيخ عبد الله بن حميد الى جميع ديار عمان ليدعو أهلها الى النهوض مع الشيوخ المذكورين والى محاربة السيد فيصل لكونه أبى تلبية مطاليبهم. فجرى الامر على ماقرروه ومكثوا الصلح في قبائل عمان المختلفة وربطوا بعضها ببعض ليكونوا يداً واحدة على السيد السلطان. ثم سار الشيخ عبد الله بن حميد الى (تنوف) (٢) بلدة قريبة من « نزوة » وواجه شيخها حمير الامامي الذي أمر بالحال بجمع علماء الاباضية وذاكرهم في الامر فقر رأيهم على تعيين امام ومبايعته، فأقاموا عليهم الشيخ سالم بن راشد الخروصي (٣) ودخلوا « نزوة » سرا ودعوا سكانها الى المبايعة فبايعوا الامام وكان في مقدمتهم بنو ريام والمكتوم (٤)

فلما بلغ الخبر أمير نزوة وهو السيد سيف بن حمد من أبناء بني سعيد جمع عليهم بعسكره كيما يطاحنهم . لكنهم أبلوا بلاء حسناً وقتلوا من بني سعيد خاصة أكثر من ٣٥ رجلا وجرحوا الوالي ثم بعد ذلك أخذت نزوة أو قل: سلمت نفسها بدون مقاومة لضعف أهلها وقوة محاربيها وبالحال أخرجت العساكر من القلعة الحصينة (٥) واحتلها أتباع الامام

اما الوالي فانه لما رأى الحال على تلك الصورة لجأ الى أحد المساجد فطلبوا اليه ان يطاوع الامام والا يعامل معاملة الأسير فاستمهلهم ساعة قبل الجواب فامهلوه أكثر .

قبض الامام على زمام الامر في نزوة ولما قرت فيها قدمه أرسل يقول لسكان بيت سليط (٦) أما الطاعة واما الحرب . فسالموه وأطاعوه . ثم سار وقد قسم جنده الى طائفتين وجه الطائفة الاولى الى (بركة الموز) (٧) والطائفة الاخرى الى الرستاق (٨) وما كادت تصل تلك الجنود الى تلك الديار الا وانقاد سكانها الناجين

(١) بنو الرجعة قبيلة كثيرة العدد عتيدة العدد أصلها من ذيبان (٢) تنوف واقعة في سفح الجبل الاخضر الشهير بكثرة الاشجار وما يتدفق عند حضيضه من الانهار وهو يبعد عن مسقط مسير خمسة أيام ولما نزوة وتسمى اليوم نزوى فهي عاصمة بلاد عمان في سابق العهد وهي الى يومنا هذا مدينة كبيرة فيها ما يقرب من ٣٦٠ مسجداً كذا في رواية سليمان العدني الدخيل ولكن الاصح ٣٦ مسجداً بخلاف الصادر وفيها مسجد كتب عليه انه « حول مسجداً في سنة ٧٠ للهجرة » وكان في السابق كنيسة للنصارى (٣) هذا الامام ابن السنة الثالثة تقدموه وكلهم من قبيلة خروص القوية (٤) وهما قبيلتان مشهورتان في تلك الديار (٥) هذه القلعة من القلاع المنيعة القديمة قال عنها سليمان العدني الدخيل انها قوية البناء لا تؤثر فيها المدافع الجديدة (كذا) ولعله يريد المدافع الجديدة تلك التي يتخذها الصيادون ... السلائف ؟ إ ٩٦٦ إلخ حصون منيع ٩٧٥ وهي بلدة كبيرة منيعة ٨٠٥ ٨ وهي من المواضع القديمة

بدون معارضة . ثم زحفوا على بلاد الحزم (١) فبايع أهله الامام . ثم زحفوا الى ولاية العوابي (٢) فلم يقاومهم فيها أحد . وفي تلك الاثناء كانت الطائفة الثانية من الجند قد زحفت من (بركة الموز) الى (ولاية نزوى) (٣) وقالوا لواليها : ان أنت وافقتنا على أمرنا أقمناك اماماً . فسلمهم القلعة بدون محاربة وللحال البسوا رأسه بعمامة وقالوا له : « كن مستعداً لان تكون خليفة (٢٢!) بعد امامنا هذا (!) .

لما سمع السيد فيصل هذه الامور جيش جيشاً فيه ٥ آلاف جندي وأمر عليه ابنه السيد نادر فلما وصل الى قرب موقع الامام الجديد في (سمائل) قلب له جيشه ظهر المجن فانحاز الى جيش الخصم ولم يبق معه الا فرقة من البلوص وأولاد بني سعيد وكلهم لايتجاوز عددهم التسعين . فلما رأى هذه الحالة لجأ الى حصن سمائل فدخله ولبث فيه محصورا متمنعا بالمدافع التي كانت هناك دفعاً لهجمات عدوه الشديدة

اما قبائل ذلك الموطن فانها لم تنفعه فتيلا لانها كلها خانته وانحازت الى الامام الجديد الذي اشتد ساعده لما رأى من الدوز [illegible] ومع ماتوفق له من انضمام القوم اليه لم يستفد من محاصرة السيد نادر [illegible] فائدة لانه كان يدحرهم شر دحر بما كان يمطره عليهم من [illegible] رأى الامام من الاوفق له ان يتركه وشأنه ويحاصر [illegible] وهو في دعته في بؤرة البلد

ثم ان الشيوخ [illegible] الى (سمائل السفلى) وسار الشيخ عيسى الى بلد (سرور) فبايعه أهلها . وسار الامام ومعه الشيخ عبدالله الى سمائل العليا (٤) محاصرين السيد نادراً . ثم انهم لما لم يروا نتيجة لتاب محاصرتهم حفروا سرباً أو نفقاً تحت الارض على بعد ربع ساعة (كذا ولعل في هذه الرواية غلواً عظيما ولا سيا لان الارض هناك ذات حجارة صلبة سوداء تكاد تكون كالمرمر) ينتهي الى القلعة ونسفوا بالبارود شيئاً يسيراً من الحصن ولم يصب أحد بضرر لا من المحاصرين ولا من المحاصرين، لكن لما أعادوا الكرة وأخذوا ينسفون الحصن المرة الثانية رجع مفعول البارود على جند الامام وأهلك من قومه نفوساً كثيرة .

اما الشيخ عيسى فانه أوغل في البلاد وبايعه أهلها وما زال يمعن فيها حتى وصل الى بلد (فنجا) فارسل السيد فيصل عليه جيشاً جراراً وعند وصوله الى بلد

(١) وهي بلاد فيها قلعة حصينة اذا دخلها الدخيل لا يهتدي الى الخروج منها الا مع دليل يهديه (٢) ولاية حصينة هي من أول املاك السيد فيصل (٣) يعني والي هذه الولاية وهو من الامام فيصل وابن عمه (٤) سمائل أو سمائل السفلى وسمائل أو سمائل العليا وسرور كلها بلاد واسعة على مسافة يومين الى اربعة ايام من مسقط

(الحوث) وحمل على أعقابه وذهب الى بلاد (السيب) بدون ان يرى العدو بل علم ان العدو قد احتل (الحوث) قبل ان يصل اليه وبانه أخذ خلق سعي جيش السيد فيصل . ــ وأما جيش الامام الذي كان قد احتل (الرستاق) فانه تجاوزه وأمعن في البلاد حتى دخل (العوابي) وفيها ابناء السيد فيصل وهما حمود وحمد، ومعهما السيد (هلال) والي (بركة) فلما رأوا صولة العدو فروا هاربين من القتل فأخذها الامام وأخرج منها العسكر الموجود فيها وامتلك الاسلحة المدخرة هناك وباعها للعشائر

استمرت هذه المحاربة نحو أربعين يوما . وفي الآخر رأى السيد فيصل ان لاطاقة له على مقاومة العدو فاستنجد بالانكليز فامدوه بست بوارج حالاً. وبخمسمائة جندي ، وأعدوه ان يساعدوه في كل ما يطلبه، وان لايمدوا في البر أكثر من مسافة ساعة . وقد احتلت الجنود الانكليزية بعض القلاع وأخذوا يقاومون العدو أشد المقاومة وأصبحوا أصحاب الامر والنهي في عمان

ولما قرت قدم الانكليز في مسقط وفي سائر ديار عمان وأصبحوا فيها أصحاب الامر والنهي نشروا فيها أجنحة الامن والراحة والسكون، حتى ان أحد تلك الارجاء كتب الى جريدة الدستور العربي [illegible] الى ربوعها بعد ان اتخذ الانكليز جميع وسائل الحرب لصد العدو عن [illegible] شرعوا للمذاكرة في أمور الصلح بينهم وبين الامام الاباضي ، فتبارك مالك الملك الذي يؤتي الملك من يشاء وينزعه ممن يشاء . اهـ بنصه

(المنار) نشر في جرائد مصر والعراق وسورية عدة مقالات في اخبار هذه الفتنة لم نر فيها أوفى من هذه المقالة المختصرة المفيدة . واذا صح ماقاله الراوي من ان الشيخ عبد الله السالمي والشيخ عيسى بن صالح كتبا الى السيد فيصل رحمه الله تعالى بما ذكر ، وانه أجابهما بما ذكر (في ص٩٤٢) فقد أعذرا اليه، واللوم عليه اكبر من اللوم على غيره. نعم اننا نعلم انه صار مغلوبا على أمره للانكليز في حاضرة مسقط ، وانه لم يعد يستطيع منع المبشرين ــ الذين هم أصل كل فتنة في كل البلاد التي يحلون فيها فيفسدون على اهلها ديانتهم ويفرقون كلمتهم، ويمهدون السبل لازالة استقلالهم اذا كان لهم استقلال ــ ولا منع للموبقات والمسكرات بدون اذن الانكليز، ولن يأذنوا بذلك. ولكنه لا ينبغي مع هذا ان يجيب بما قيل إنه أجاب به من الرضا بدعوة المسلمين الى ترك دينهم الحق، وإباحة الفجور والفسق ، وعدها من الحرية التي لا يجوز تقييدها ، اذ لا يوجد في

الأرض مملكة تبيح لكل أحد أن يفعل ما يشاء ، غير مراعية استعداد الرعية ، ولا عواقب الأمور الأدبية والسياسية ، ولا تهيج الاحقاد الدينية . فالانكليز وهم أعرق الافرنج في الحرية لا يبيحون للكاثوليك أن يظهروا شعائر مذهبهم في مثل عيد الفصح في لندره ، ولا يسمحون المبشرين من أهل دينهم ومذهبهم ان يدعوا الى النصرانية جهرا في جميع بلاد السودان المصري الانكليزي ، ويقال انه ليس في بلادهم مواخير علنية للبغاء . فهل كان السيد فيصل أوسع من الانكليز حرية وسياسة؟ أم تلك الرواية عنه كاذبة ؟ وإلا فأين الاسلام ؟ وأين العقل والذكاء ؟ انني استبعد جداً أن يكون الغرور بهذه الالفاظ التي يلوكها بيننا الافرنج والمتفرنجون قد وصل حتى عقل السيد فيصل الى ذلك الحد الذي يدل عليه الجواب الذي عزي اليه ، وعسى ان يكتب الي نجله النجيب صديقي السيد نادر (١) ما هو الحق في هذه المسألة

وقد صرحت المقالة أن الانكليز قد احتلوا سواحل عمان كلها ، وصاروا أصحاب الامر والنهي فيها ، فاذا صح الخبر فلا بد ان [illegible] كل ذلك باسم سلطان مسقط ، ويسموا عملهم خدمة ومعاونة له ، حتى لا ينفر منهم سائر أهل الخليج الفارسي من شيوخ العرب الذين يعدون الاستيلاء على بلادهم [illegible] ([illegible]) و (دبي) بالفتح السامي ، كاستيلائهم التدريجي على القسم الجنوبي من بلاد ايران . وأهل الشرق قد جنوا بالألفاظ فهم يموتون عليها ، ويشتغلون بها عما لا يهتمون بالحقائق .

الآن أقول انني لما كنت في ضيافة السيد فيصل منذ سنة ونصف تقريبا ورأيت حال حاضرته مسقط قلت له : اني أتوقع ان ينصب قومك الاباضية إماما لهم ويخرجوا عليك باسم الدين ، فأرى أن تجتهد في تلافي الامر قبل وقوعه ، وتدارك الفتنة قبل اشتعال نارها ، أن تجمع كلمة قبائل عمان وتؤلف من شيوخهم مجلس شورى ، وتجعل عاصمة للمملكة في الجبل الاخضر ، وتنظم أمور المالية ، وتقيم العدل الشرعي في داخلية البلاد ، ولا يضرك بعدها العجز عن بعض الامور في حاضرة مسقط لمكان النفوذ الاجنبي فيها . وفصلت له القول في ذلك تفصيلا ، ولكنني فهمت منه أنه ليس لديه من الرجال ، من يستطيع القيام بهذه الاعمال ، ومن الغريب أن ما توقعته قد وقع بعد سنة فقط

---

(١) نادر بالدال المهملة لا المعجمة كما تكرر في مقالة لغة العرب ، ونحن أعلم بضبط اسمه لأننا لقيناه وسمعنا والده وأهله يذكرون اسمه ويخاطبونه به ، وبيننا صلة بالمكاتبة

الشيخ علي يوسف

٢

سياسته العامة والعثمانية خاصة

كان الشيخ علي كاتبا سياسيا ، وكانت سياسته اسلامية عثمانية مصرية . ثم لما اظهر الاتحاديون العصبية التركية ، واضطهاد العرب والعربية ، كانت سياسته اسلامية عربية أولا ثم عثمانية . أعني انه يخدم الدولة العثمانية في كل ما يستطيعه الا اذا كان معارضا للاسلام او العرب ، وقد خدمها أجل خدمة في تأسيسه لجمعية الهلال الاحمر في مصر ، فهو الذي سن هذه السنة الحسنة في مصر فاستفادت الدولة منها الألوف الكثيرة من الجنيهات مع بعثات طبية منظمة أدت لها الخدمة النافعة في حربي طرابلس والبلقان ، كما كان له في مؤيده اليد البيضاء في اعانتها من قبل على حرب اليونان

كان المؤيد الأثر العظيم فيما عليه المصريون الآن من التعلق الشديد بالدولة العثمانية والحب الخالص لها ، [illegible] شديدا لانهم لم يروا من آثار حكمهم ولم [illegible] من الخبار حكمهم [illegible] ذلك . وقد تجلى ذلك في الثورة العرابية أظهر التجلي ، فكان [illegible] قاموا عازمين على جعل حكومتهم مصرية محضة يتولى ادارتها المصريون دون الترك والمستتركين من الشراكسة وغيرهم . فلما وقعت البلاد تحت سيطرة الاحتلال الاجنبي ثقل ذلك على المسلمين طبعا ، وأحسوا بضعفهم ، فحدث عند بعض المشتغلين بالسياسة فكرة التعلق بالدولة والرجاء فيها . وكبر ذلك وعني بل وجد وظهر منذ تولى الأريكة الخديوية العزيز (الحاج عباس حلمي الثاني) وفقه الله وأيده ، فانه بما سنه من زيارة الآستانة في كل عام ، أوجد في مصر حركة سياسية وطنية لم تكن في غابر الايام ، وجرأ المصريين على ما لم يكونوا يتجرؤن عليه من قبل ، وولى وجوههم شطر تلك العاصمة ، وأطلق ألسنتهم واجرى أقلامهم بما لم يكن يعهد من احد منهم ، وكان المؤيد خطيب هذا الامر ، أو منبر خطباء هذه السياسة ، ولكن مصر لم تستفد شيئا مما كانت ترجوه من هذه السياسة . وانما استفادت منه الدولة تعلق السواد الاعظم من المصريين بها وحبهم إياها ، فكان من أثره جمع الاعانات لها في كل حرب تدخل فيها

لاموضع هنا لبيان أثر هذه السياسة في معاملة الانكليز لمصر وللدولة العثمانية ،

ولا لبيان تأثير هـذا الحب والتعلق من الخديو وأمه في نفس السلطان عبد الحميد ثم في نفوس من خلفوه وخلفوه في هذه الدولة ، ولا لبيان سيرتهم مع عزيز مصر ، ولا مع الانكليز فيما يتعلق بسياسة مصر . لأن موضوعنا سياسة « الشيخ علي يوسف في المؤيد وفي نفسه » وخلاصة القول فيها انها كانت اسلامية في كل حال - عثمانية مصرية معاً أيام كانت الآمال والأماني تنوط بالدولة حل المسألة المصرية باخراج الانكليز من مصر - ثم عثمانية محضة مصرية محضة بعد ما خابت تلك الآمال ، وطاحت تلك الاماني والاحلام ، التي كان يقال في مثلها « حياتنا بين يدي اللابس » ثم عربية عثمانية في العهد الاخير ، كما اشرنا الى ذلك في فاتحة الكلام . بل صارت خدمته للدولة في هذا العهد داخلة في سياسته الاسلامية العامة . وسيأتي الكلام في سياسته المصرية خاصة .

يقول أعداؤه وخصومه في السياسة من قومه انه كان متقلبا في سياسته ، ويعدون عليه من ذلك ما قد يعدونه . والسياسة ليست علماً يقينياً فالذي يجمد على حال واحدة لا يستطيع ان يكون سياسيا ، لان الاحوال تتغير دائما ، والسياسي هو الذي يدور معها كيفما دارت وفق الحكمة والاعتدال ومقتضيات الحال ، وانما يعاب على الرجل أن يكون متقلبا في المقاصد لا في الوسائل .

فمن هذه القواعد التي لا نزاع فيها يرد أنصار الفقيد شبهة خصومه بانه كان في سياسته أثبت من الأطواد . أما سياسته الاسلامية فالامر فيها ظاهر ، ولم يتهمه بالتحول عنها متهم ، وأما سياسته العثمانية فقد ثبت عليها حتى المات أيضا . وآخر خدمة خدم بها الدولة تأسيس جمعية الهلال الاحمر المصرية ، وكان عضوا عاملا في جمعية اعانة الحرب أيضا . نعم انه شن على جمعية الاتحاد والترقي حربا عوانا لاعتقاده ان ما سارت عليه في سياسة الدولة وادارتها كان ضاراً بالدولة العلية والامة العثمانية عامة ، وقومه العرب خاصة ، ومضعفا للرابطة بين الدولة وبين مصر . . ومنافيا للسياسة الاسلامية أيضا ولم يكن رحمه الله منفردا بهذا الاجتهاد بل كان متفقا فيه مع جماهير العثمانيين من الترك والعرب الذين الفوا عدة أحزاب لمقاومة الجمعية ، وصار اكثر اعضاء مجلس الامة عليها فاضطرت الى حله بالارادة السلطانية . ثم ان الجمعية نفسها صرحت بأنها كانت مخطئة في كثير من أعمالها ومقاصدها وانها رجعت عنها ، ومنها تتريك العرب وغيرهم من الاقوام العثمانيين

فظهر للمتتبع الحوادث أنه قد ظهر انه كان مصيبا في انتقاده ، وكان آخر ما ظهر للجمهور من ضرر سياستها هو أول شيء كان أول من انتقده عليها جهرا ،

وهو جعل السلطة في أيدي الضباط واشتغالهم بالسياسة . وقد قال في هذا الموضوع كلمته المشهورة في بيروت في أول العهد بإعلان الدستور ، وسكر الناس كلهم بخمرة الفرح والسرور ، وهي « ان السيف والسياسة لا يجتمعان في غمد واحد » قال ذلك لما رأى بعض صغار الضباط الاتحاديين في بيروت يتصرف في الحكومة تصرف الحاكم المطلق المستبد . ثم تبين أن ضرر اشتغال الضباط بالسياسة والادارة قد اضعف الدولة وقسم القوة فيها على نفسها ، وكان أهم أسباب الخذلان في الحرب البلقانية الاخيرة كما صرح به القائد الالماني الكبير (البارون فندر غلتز) باشا منظم الجيش العثماني

ويقولون ان التقلب والتذبذب في السياسة العثمانية هو ما جرى عليه خصوم الفقيد الذين صدق عليهم المثل « رمتني بدائها وانسلت » ذلك بأنهم ينصرون أصحاب القوة أخطأ أم أصاب ، نهض بالدولة أم هوى بها ، فكانوا يقدسون السلطان عبد الحميد ويقولون في طلاب الدستور والاصلاح أشد ما قال مالك في الخمر . وكانت قاعدة سياستهم ما وضعه لهم زعيمهم مصطفى كامل [illegible] الغلو في السلطان عبد الحميد والتشنيع على طلاب الاصلاح والدستور منه ، حتى أنه أوجب على من ينطق بالشهادتين — الشهادة لله تعالى بالوحدانية [illegible] — أن يقرنهما بالشهادة للسلطان عبد الحميد [illegible] وقد صرحوا في جرائدهم [illegible] قبل اعلان الدستور بيوم واحد بأن طلاب الدستور أعداء الدولة [illegible] لا يضر الدولة ويفسدها [illegible] كانوا بعد إعلان الدستور أيضا يصيحون في وجوه بعض العثمانيين المبتهجين به . ثم لما استقرت السلطة لجمعية إعلان الدستور وصار بيدهم المال والقوة قدسوهم كما كانوا يقدسون السلطان عبد الحميد ، وصاروا يأشون خصومهم كما كانوا يمقتونهم عندما كانوا خصوم السلطان عبد الحميد

هذا ملخص ما يرد به أنصار الشيخ علي على خصومه في مسألة تقلبه في سياسته العثمانية في جوهرها ، وهو انه كان يتبع المصلحة ويدور معها ، وهم يتبعون رجال السلطة ويدورون معهم . وقد سمع هذا الباب لخصم ثالث يقول : ان الشيخ عليا كان من أنصار السلطان عبد الحميد أيضا ، بل هو استاذ مصطفى كامل في الغلو فيه ، وقد نال من رتبه وأوسمته أكثر مما نال مصطفى كامل ، وبقي ثابتا على الثناء عليه فلم ينقلب عليه بعد سقوطه ، كما انقلب عليه التلاميذ مصطفى كامل ، وكنا ننتظر أن يعد أنصاره هذا من ثباته . ولكنك تذكر عنهم أن الشيخ كان يتبع في خدمة الدولة العلية المصلحة ، لا الرجال الذين بيدهم المال والقوة ، فهل كان الشيخ على بجهل ان السلطان عبد الحميد مخرب الدولة أم لا ؟ ان قلت : نعم ، فما هو بالسياسي ، وان قلت لا !

فما هو بالناصح الذي ينبع المصلحة . وانما الناصح في هذه المسألة هو المقطم دون المؤيد ودون اللواء الذي تلقى عنه السياسة الحميدية كالمصرية ، ثم أربى عليه في الغلو فيها وغش الناس بمدح ذلك السلطان المخرب . فما قول انصار الشيخ الذي يبالغون في مدح سياسته فيغرقون في هذا ؟ وما قولك وأنت تبحث في سياسته بحث المؤرخ الصادق المنصف ؟

أقول ان آخر ما أعرف من شوط أنصار سياسة المؤيد في هذه المسألة ان السلطان كان هو الدولة ، فكان لابد لمن ينتصر لها لكونها إسلامية وللتقوي بها على الاحتلال الاجنبي في مصر من مدح السلطان والدفاع عنه كيفما كانت سيرته في سياسته وادارته المملكة . والسياسي لايكون صوفيا ولاناسكا يلتزم الحق من كل وجه ، بل يلتزم مصلحته والمنفعة التي اتخذها قاعدة لسياسته . والمقطم ما كان يذم السلطان ويندد بمخازيه انتصاراً للحق وغيرة على الدولة ، بل ليصرف عن الدولة قلوب المصريين ويقطع حبل رجائهم فيها خدمة للاحتلال، لاجل هذا كان في حجاج وخصام دائم مع المؤيد ثم مع اللواء الذي اتبع سنن المؤيد وغلا فيها غلوا كبيراً . واما الانتفاع برتب السلطان واوسمته فلا يلام عليه مثل الشيخ علي يوسف ولا مصطفى كامل ، لأن التصدي للزعامة السياسية يحتاج الى ذلك لانه يزيد في جاه صاحبه عند كثير ، ويؤهله للقاء عظماء الحكام والسياسيين أصحاب المناصب فيعدونه من طبقتهم . وانما يعاب بمثله من يخدم المصلحة العامة تعبداً لله تعالى ، أو من يبني خدمته على مقاومة تميز بعض الناس على بعض بهذه الرتب التي تضعها الحكومة ويطلب إبطالها ، ليتفاضل الناس بعلومهم وأعمالهم ، لا بالألقاب اللفظية ، ولا بحلي الأوسمة الفضية والذهبية

أما أنا فأقول إن كلا من المؤيد واللواء – ومثلهما الاهرام – قد أضر المسلمين والعثمانيين عامة والمصريين خاصة بما جرى عليه من الاسراف في مدح السلطان عبد الحميد والدفاع عنه ، ولولا أن جمهور المسلمين كانوا يحملون ذم المقطم لسياسته وادارته وتنديده به على سوء النية ويظنون ان أخباره غير صادقة ، ولولا تلك الردود عليه لكان نفع ما نشره عظيما ، ولقد كان يكون النفع أعظم لو كان المؤيد واللواء ينشران مثل تلك الاخبار ويبنون عليها مطالبة السلطان بالاصلاح ، مشايعة لطلابه من العثمانيين مع الاعتدال .

وقد كنت أقول لمن أذاكرهم في ذلك من عقلاء المصريين : إن المقطم ينشر بعض ما يعلم ، ويعلم بعض مايقع . وانه يجب عليكم أن تعتبروا بأخباره ، مهما كان

ظنكم ورأيكم في نيته . والا كنتم طالبين للتلذذ بمدح الدولة والسلطان ، لا لمعرفة الحقيقة التي يتبعها الصلاح والفساد . فتشايعون السلطان على ما يضر ، وتتكلون عليه في أمر الاسلام وأمر مصر ، وكل ذلك من بناء المصلحة على وعث من الرمل، بدلاً من بنائها على الصخر ، وهو ان تعرف الأمة حقيقة حال دولتها وحكومتها ، وتعتمد على سعيها وعملها في إصلاح نفسها واصلاحها .

ومما أعرفه الشيخ علي رحمه الله تعالى من المزية في سياسته العثمانية ، بل في اخلاقه وسجاياه الفطرية ، انه كان كلما ازداد علما وخبرة بأحوال الدولة ازداد ميلا الى مساعدة طلاب الاصلاح من العثمانيين على مايطلبونه،ولكن مع روية واعتدال،ومحافظة على كرامة السلطان لعدة أسباب (منها) مراعاة صلة الولاء بينه وبين الخديو التي كان هذا يحافظ عليها فلا ينقطع عن زيارة ذاك سنة من السنين . (ومنها) ماكان يراه اولا من نفع تعلق المصريين به في المسألة المصرية (ومنها) اتقاء ان يظنوا أنه صار خصما للدولة . (ومنها) ان مفاجأة الناس بخلاف ما يرونه ربما يفضي الى ضد ما يراد منه ، وينفرهم من المؤيد ، فلماذا لا يعد خصومه هذا من ثباته على حفظ كرامة السلطان ، ويعدون مساعدة طلاب الاصلاح من التقلب في السياسة وعدم الثبات ؟

لا اذكر من الشواهد على رغبته في معرفة حقيقة حال الدولة ومساعدة طلاب الاصلاح فيها ما كان بينه وبين مراد بك صاحب جريدة (ميزان) الذي كان من زعماء جمعية الاتحاد والترقي الاولى ، ولا ما كان من صلته بمحمود باشا الداماد ، فان هذا مما لا أعرف حقيقته وخفاياه . واكتفي بأصح الشواهد وأثبتها وهو ماوقع لي معه :

إنما كثر اجتماعي به وكان مبدأ محبتي له في سنة ١٣١٦ اذ كنت أطبع (المنار) بمطبعته في أواخر سنته الاولى وأوائل سنته الثانية قبل شراء مطبعة له ، وما كان أسرع ما وثق بي على قلة ثقته بالناس . ولما رأيته يحدثني بحرية واستقلال فكر ، ويقبل مني ما أذكره له من الانتقاد على الدولة والسلطان، خلافا لاكثر من عرفت في مصر من الاخوان ، رغبت اليه في جعل المؤيد لسانا لطلب الاصلاح في الدولة ، فقال لي : اكتب ماتشاء من رأيك في ذلك مع الاعتدال وحفظ كرامة السلطان ، وذلك كاف في ايصال هذه الافكار والآراء الى الناس . فكتبت عدة مقالات في موضوع حاجة الدولة الى الاصلاح وما يجب منه في هذا العصر . فكان ينشرها في صدر المؤيد غالبا كما ينشر غيرها من مقالاتي التي كنت اذيلها بإمضاء (م . ر) ويعزوها هو الى « أحد افاضل الكتاب المجيدين »

ما كنت أظن يومئذ أن أحدا من المشتغلين بالسياسة في مصر ينكر عليه نشر تلك المقالات لأني كنت أنشر في المنار ما هو أشد منها في تمثيل الخلل والفساد ، وما يجب على الأمة والدولة من الإصلاح ، حتى دخلت عليه يوما فإذا هو في جدال مع محمد بك فريد في مقالة من تلك المقالات . كان فريد يقول له إن نشر مثل هذه المقالة يعد خروجا من المؤيد عن خطته ، وإن ذلك قد ساء إخوانهم الوطنيين جداً . . . .
وقد علمت منه بعد ذلك أن كثيرا من أصحابه كلموه بهذا اللسان ، ولم يرأن يذكر لي ذلك حتى سمعت بأذني . وأطلعني أيضا على رسالة جاءته من تونس وأخرى من جاوه في الرد على مقالة من مقالات (المنار) ساءت كثيراً من الناس في تلك الأقطار ، إذ عدوا النصيحة لجهلهم عداوة للدولة وخروجا عليها ، ولكنه لم ينشرها لأنه كان يرى أن ما ينشره المنار حق ، وقد كتب بمداد الغيرة والاخلاص للدولة .

أليس هذا دليلا على كونه كان يراعي المصلحة العامة ، ويحب إصلاح الدولة ويساعد المصلحين ، بشرط أن لا يضر بنفسه [illegible] جريدته ؛ بل وأنا على ذلك من الشاهدين . ولعله لولا ظهور جريدة اللواء والتزامها خطة الغلو في تقديس السلطان عبد الحميد وفي المسألة المصرية [illegible] ما يشير به حزم الروية والاعتدال ، لما وقف [illegible] عند ما عهدوا في السياسة العثمانية ، بل لسدد وقارب في السير إلى الغاية التي يحب ، وهي معرفة حقيقة حال الدولة ومعرفة حقيقة أنفسهم ، ومكانهم منها ومكانها منهم ، وما يجب عليهم لها ولأنفسهم ، ولكانت مصر حينئذ هي المعين الأكبر لأحرار العثمانيين على ما كانوا يطلبون من الإصلاح ، ولوصلوا بذلك إلى خير مما كان من إكراه الجيش السلطان على إعلان الدستور ثم خلعه بقوة السلاح ، وما ترتب على ذلك من الشقاق والخذلان ، الذي نشكو من سوء عواقبه الآن .

وجملة القول في سياسة المؤيد العثمانية إنها بنيت أولا على أساس المسألة المصرية ، وقصد بها تقوية الصلة بين الدولة ومصر ، وبين السلطان والخديو . وكان الشيخ علي لا يعرف في أول العهد بها من أمر الدولة والسلطان شيئا ، إلا ما اقتضته الحال من تلك الحركة الخديوية ووافق ما جبل عليه من النزعة الاسلامية . ثم إنه صار كلما زاد علما بالدولة واختبارا يتلطف في النصح ، ويساعد طلاب الاصلاح من العثمانيين ، مع مراعاة ما كان يرمي إليه من تقوية الصلة بين مصر والدولة العلية ، والمحافظة على كرامة السلطان إن لم يكن لذاته فلما هو متحل به من لقب الخلافة الاسلامية ، ولما بينه وبين عزيز مصر من الرابطة الرسمية

وأما اللواء فقد بدأ سياسته العثمانية بما تلقفه من سياسة المؤيد في طفوليته (أي المؤيد) وغلا فيها كدأبه وعادته ، وكان كلما زاد صاحبه معرفة بسوء حال السلطان عبد الحميد وزبانيته ، يزداد غلوا في اطرائه وتقديسه وإسرافا في التشنيع على طلاب الاصلاح للدولة . ذلك بأنه كان له راتب مالي يأخذه من (المابين) فوق ماناله من الرتب والاوسمة لنفسه ولكثير من المصريين ، وفوق المال الذي كان يأخذه بأسماء أخرى كعقد الاحتفالات السنوية بعيد الجلوس السلطاني في أوربة . ووراء ذلك ما لايحسن ذكره في هذه الترجمة . فاذا كان هذا مواثبات المحمود عند الذين يطعنون في الشيخ علي لتحوله عنه ، فأعدل ما نحكم به في هذه القضية قول الخليفة العادل عمر بن الخطاب رضي الله عنه : « مراجعة الحق خير من التمادي في الباطل »

على انا رأينا ان الشيخ ثبت على خدمته الدولة في تقوية حقوقها في مصر ، وناهيك بتلك الغارة الشعواء التي شنها على حكومة بلاده في مسألة القضاء الشرعي اذ أرادت بضغط الانكليز ان تبطل جعل تولية قاضي مصر الاكبر من حقوق السلطان يرسله من الآستانة ، وفي إعانة المصريين لها بالأموال ، ولا سيما في أزمنة الحروب والشدائد . وفي تقوية [illegible] ([illegible] عرف هذا العصر) وقد ختم ذلك بأفضل خاتمة ، وهي السعي ضد الحزب الآخر ، واستقال أخيرا من لجنة إعانة الحرب البلقانية لأنه اقترح أن ترسل اللجنة الى الدولة ما بقي في صندوقها من المال - وهو مبلغ كبير - بعد انتهاء الحرب ، فأبى الرئيس وأكثر الاعضاء ذلك . فليدلنا المعارضون على خدمة غيره لها ، التي تضاهي خدمته وتغني غناءها . ومن سبر غور السياسة يعلم ان حملته على الاتحاديين كانت انفع للدولة في سياستها ومصلحتها الدائمة من تلك الاعانات المالية ، لأنها تفيد في اصلاح سياستها الدائمة . والاعانة منفعة موقتة عارضة ، ورحم الله الاستاذ الامام حيث قال : « ما وعظك مثل لائم ، ولا قوّمك مثل مقاوم »

سياسته المصرية

كانت مقاومة الاحتلال والسعي لجلاء الجيش الانكليزي عن مصر من قواعد سياسة المؤيد الاساسية ، وقد كان ذلك مرجوا لأن حكومة لندرة كانت تصرح رسميا بأن احتلالها للبلاد المصرية موقت وانها ستجلي عنها ، ولأن دول أوربة كانت معارضة لها في احتلالها معرقلة لكل مايثبت قدمها ، واشدهن في ذلك فرنسة ، ولأن

الدولة العثمانية كان يحسب لها حساب كبير في هذا . فلما عرف الفقيد حقيقة الدولة العثمانية ، ومنتهى شوطها في المسألة المصرية ، ورأى كيف رجعت فرانسة القهقرى في حادثة (فشوده) الشهيرة ، ثم كيف تعاقدت (سنة ١٩٠٤) مع انكلترة الاتفاق على ترك حقوقها بمصر ، في مقابلة مساعدتها على احتلال مراكش ، ثم كيف تابعت سائر الدول الكبرى على اقرار انكلترة على احتلالها في مصر ، واعطائها العهود على عدم معارضتها فيه ـ لما علم ذلك رأى ان العمل النافع لمصر انما يكون فيها وفي لندرة ، لأن الجذب والدفع صار محصورا بين المصريين والانكليز ، فلا رجاء في أحد يساعد المصريين مساعدة يرجى نفعها الا بعض احرار الانكليز محبي الانصاف أو المعارضين لحكومتهم في سياستها الاستعمارية . فحصر عمله في هذين الامرين ، فقامت عليه قيامة جريدة اللواء وأنصارها ، وسموا المؤيد بالمقطم الاحمر ، لأن الوطنية وخدمة مصر عندهم تنحصر في شيئين : مطالبة الانكليز بالجلاء عن مصر ، وشتم أنصار الحكومة وذم كل عمل تعمله في مصر . أما الفقيد فقد أقام حجة احرار اللواء على الغلو في المعارضة السير على ما أوجبه عليه تغير السياسة الخارجية وطول التجربة والاختبار من الاعتدال في المعارضة ، واقامة الحجة بحسب ما [illegible] المتكلم [illegible] بالحجة والبرهان ، لا بالتمويه ومكابرة الحس والبيان ، وكان يرى ان [illegible] قد تكون تحت الروية والعقل ، فيكره أن يصادر اللواء في حريته ، على ايذائه له ولوطنه .

أما عمله في مصر لمصر فطرقه وأنواعه كثيرة ، منها ما هو خاص بتنبيه الاهالي وارشادهم الى ما ينفعهم في التربية والتعليم والآداب والفضائل ، وفي الكسب والاقتصاد والتعاون على الخير ، ومنها ما يتعلق بحقوق الامة على الحكومة ، والتعارض والتجاذب بين مصر والمحتلين

وكان ركن سياسته المصرية الركين تأييد نفوذ الامير الشرعي (الخديو) وسلطته في كل أمر ، والتوسل الى ذلك بكل ما يمكن ، ويحتج بأن كل ما زاد في سلطته ونفوذه فهو ربح لمصر على الاحتلال ، وكل ما نقص منها فهو مزيد في سلطة الاحتلال ونفوذه . فكل أمر للامير فيه رأي أو قصد فهو الخادم الأمين له فيه ، ينصره برأيه وقلمه ولسانه ، وان خالف رأي نفسه ، الا أنه في هذه الحالة قد يتلطف في عرض رأيه على مسامع الامير قبل الشروع في العمل ، فان قبل فذاك ، والا أخذ بقول الشاعر :

* سيد القول ما يقول الرئيس *

وقد ثبت على هذه السياسة واستمر على هذه الطريقة طول حياته ، ولقي في ذلك من الألاقي ما يلقاه أمثاله من كيد الحاسدين له على قربه

من أريكة الملك ، ومعارضة الخالفين له في السياسة والرأي ، وخسر كثيرا من الأصدقاء الذين لا ينكر مالهم عليه أو على الأمة من الفضل ، لأن هؤلاء يرون أن الاخلاص للبلاد في خدمة الأمير انما تكون بحسب اعتقادهم ورأيهم وان لم يرضه احيانا.

وقد كانت اضاعته لبعض هؤلاء الأصدقاء الأوفياء أنهض حجج من رموه بقلة الثبات وعدم الوفاء ، ويقل من يعرف كنه هذه الوقائع وزنها بالقسطاس المستقيم ، ويقل في هذا القليل من يبين للناس ماهو الراجح والمرجوح في هذا الميزان ، للتعريف بحقيقة هذا الرجل الذي يقل مثله في الرجال

انا سمعنا بعض الذين رثوا الرجل في منظومهم ومنثورهم قد وصفوه بأنه أوفى الأصدقاء، في هذا الزمن الذي قل فيه الوفاء، واني -- ولا أنكر ان بعض الناس غلوا في اطرائه - أقول انه كان ذا وفاء يقل من يفضله به . وأما الذين يصفونه بعدم الوفاء فمنهم صاحب الهوى المتبع الذي يتكلم بسوء قصد ، ومنهم المتصف الذي يعتقد ما يقول

اما سيء القصد فلا علاج لمرضه ولا جواب لقوله . وأما المتصف فله عندي جواب استخرجته من الشواهد التي عرفتها في هذا الباب ولعلها أوضحها وأكبرها ، وهو ان الرجل كان سياسيا قبل كل شيء فهو ما كان صديق الا في سبيل السياسة ، والا بعد ان تعذر عليه الجمع بين صداقته وبين ما تقتضيه تلك السياسة - وما لي لا أصرح فأقول كان اذا غضب مولاه ، الذي تدور سياسته على قطب رضاه ، على أحد اصدقائه ، يبذل كل ما يراه في وسعه من وسائل ارضائه ، فان لم يستطع حافظ على مودته بالقدر الممكن . فاذا رأى انه مضطرا الى هجره هجره هجرا جميلا ، واذا اضطر الى كتابة ما يسوءه لايتعدى حد الضرورة التي تقتضيها السياسة الا قليلا . واذا استطاع في أثناء ذلك ان يخدمه بشيء خدمه، ان لم يكن ذلك في الجهر ، فمن وراء الستر . وهل يستطيع السياسي الذي يخدم الامراء والملوك أكثر من هذا ؟

كأني ببعض هؤلاء المتصفين يقول اذا قرأ هذا : « ان عندي انتقادا آخر على الرجل وهو انه ما كان يقف في مثل هذا عند حد المصلحة العامة أو عند الحق ومقتضى الفضيلة » واني أذكر هؤلاء - الذين تمثل بعضهم أمامي الآن - بما فاته من قبل في السياسي الذي يشتغل بالسياسة فعلا من كونه لا يزن أعماله بالميزان الذي يزن به الصوفي أو فيلسوف الأخلاق ، وليس ما شرحته من سيرة الرجل في هذه المسألة بالذي يكثر في عصرنا من تصل به الفضيلة الى مثله . ولا هو بالذي يرتقي الى وضعه في ميزان سياسة عمر بن الخطاب أو علي بن أبي طالب رضي الله عنهما ، ولا بالذي

يعد من مقامات الصديقين ، المشروحة في كتابي احياء العلوم ومدارج السالكين

أين هذه السيرة ممن كان اذا سخط من أحد لانه لم يعظمه التعظيم الذي يحبه لنفسه ، يبذلو جهد طاقته في ذمه وإيذائه ، ويقصد له بكل طريق يسير فيه ولو الى خدمة الملة والامة، فيضع له الدوائر ، ويحفر له الاحافير ، ولا يرقب فيه إلاً ولا ذمة ؟ أيجوز أن يقرن هذا بذاك ؟ كلا إن ذلك ظلم وجهل بأقدار الرجال ، لا يذهب الى مثله الا بذاء العوام واغرار الاطفال . (الترجمة بقية)

باب الاخبار والآراء

كتاب ابن الرشيد الى الصدر الاعظم

ذكر في بعض الصحف أن سعود باشا الرشيد كتب الى الصدارة العظمى كتابا قال فيه:

« علمنا أن بعض الناس يقومون الآن في بعض الولايات طالبين من الدولة العلية مطالب مجحفة بحقوق الدولة ومنافية للدين الاسلامي الحنيف . الامر الذي ساءنا جدا . وعليه ليكن معلوما لدولتكم ولدى العالم الاسلامي أجمع اننا لانقبل هذه الشؤون المضرة بالدين الاسلامي والدولة وانا مستعدون مع كافة جنودنا وقبائلنا للقيام بما تأمرنا به الدولة العلية ولا نحيد عن أوامر خليفتنا المعظم » اه

ونحن نقول « أفلح الأعرابي ان صدق » في قوله انه لايرضى بما ينافي الدين وانه لايقبل الشؤون المضرة بالدين والدولة . نقول هذا ونحن لانعلم ماهي المطالب التي يعنيها إذ لم يبلغنا أن الناس طلبوا في بعض الولايات ما ذكره ، ولو أنه أشار الى تلك المطالب لعلمنا مبلغ صحة حكمه عليها، وهل هو مصيب فيه أو مخطئ ؟ وهل قال قوله عن علم باحكام دين الله ام لا ؟

ويا ليت شعري أذا علم الامير ابن الرشيد ارشدنا الله وإياه الى نصر الدين والدولة . ان بعض الناس يطلبون من الدولة منع الفواحش والمنكرات كالسكر والزنا والربا والمجاهرة بالفطر في رمضان نهارا من دار الملك والخلافة ومن غيرها من البلاد العثمانية واقامة الحدود الشرعية فيها كلها ، وعدم بيع شيء من ارضها أو معادنها للاجانب ، هل يكون مستعدا مع جنوده وقبائله لنصرتهم وشد أزرهم ؟ فان كان ينصرهم ولو بلسانه وقلمه فليعلن هذا كما أعلن ذاك ، وإن لم يفعل علم العالم الاسلامي أجمع انه غير مستعد الآن الا لما كان يعده له السلطان عبد الحميد من قبل ،

من سفك دماء المسلمين في جزيرة العرب مهد الاسلام وحرزه لأجل توسيع سلطته في بلاد امراء آل سعود وتكثير ماله وإعلاء رتبه الرسمية العثمانية عند من يرضيهم هذا وهو ما يتهمه به المشتغلون بالسياسة في ديار الشام والعراق حتى الآن . وان من هؤلاء من هم أعلم بالشرع وأحكام الاسلام منه ومن الصدر الاعظم أيضا

ما يجب على أمراء جزيرة العرب الآن

أما نحن فنقول له ان أفضل خدمة يخدم بها الاسلام والدولة الاسلامية أيدها الله بتوفيقه وتسديده هو أن يساعد على ما يجمع كلمة المسلمين لا على ما يفرقها بأي سبب كان ، واول ما يجب عليه من ذلك عقد الاتفاق بينه وبين جاره الامير ابن سعود والعهد والميثاق على السلم والامان وان لا يبغي أحدهما على الآخر ولا يقاتله البتة ، واذا وقع خلاف بينهما على شيء يحكمان فيه من يرضيان حكمه ، وعلى ان يتعاونا على تأمين جميع البلاد التي يصل نفوذهما اليها ، ومنع غزو الاعراب بعضهم لبعض فيها ، وعلى نشر العلم الديني وما يعد فرض كفاية من علوم الدنيا في بلادهما ، وعلى تنظيم قوتهما الحربية على قاعدة قول الله عزوجل (واعدوا لهم ما استطعتم من قوة) والمرابطة فيها لحفظ الحرمين الشريفين وما هو مجاور لهما من جزيرة العرب . وان يتحدا على هذا مع أميري اليمن الامام والادريسي ، فيرضيان الله ورسوله والمؤمنين ، ويكفيان الدولة مؤنة إرسال الحملات العسكرية المرة بعد المرة الى العراق والشام واليمن ونجد ، وسفك دماء المسلمين فيها لاخضاع العرب او حفظ الامن ، أو جمع السلاح وما اشبه هذه الاسباب والحجج ، التي كثيرا ما كانت باطلة ، ناشئة عن وشاية سافلة ، أو نية سيئة . واقترح ان يتضمن هذا العهد والميثاق إعانة الدولة على كل حرب تكون بينها وبين أعداء الاسلام بكل ما يقدران عليه من قوتهما الحربية

الا وليعلم الامير ابن الرشيد وفقه الله تعالى وأرشده الى ما يحبه ويرضاه انه لا شيء اضر على الاسلام من تنازع اهله وتفرقهم وسفك بعضهم دماء بعض ، وانه لولا هذا التفرق والشقاق ما زال ملك الاسلام من الشرق والغرب ، ولم يبق له الا هذه البقية المهددة بالزوال في كل يوم ، وان الدولة العثمانية أيدها الله بتوفيقه لا تقدر ان تحمي بعسكر الاناضول عاصمتها وبلادها الاوربية والاسيوية ثم تحمي به الحرمين وجزيرة العرب ، وانما يقدر على ذلك العرب وحدهم اذا اتفقوا . وليعلم ان زوال قوة العرب من الجزيرة ستفضي الى وقوعها في قبضة الاجانب في أسرع وقت وأقربه فلا يبقى للمسلمين استقلال ولا حرية في الأرض ، الا بقدر ما تمن به أوربة عليهم.

الا وليعلم ابن الرشيد وغيره ان دول أوربة يراجع بعضهم بعضاً القول في تحديد مناطق نفوذهم السياسي والاقتصادي في البلاد العربية والاناضول ، وانهم يتشاحون في قسمتها كما يتشاحون في قسمة المال ، لأن صاحب كل منطقة يتفقون على إعطائها له يعد نفسه مالكا لها بحق الفتح السلمي ، ولم يبق من عذر لأحد في الاغترار باعترافهم باسم الدولة . فان بقاء هذا الاسم أنفع لهم من عدمه ، لأنهم يستعملون به نفوذها الصوري والمعنوي لادارة البلاد واخضاع المسلمين فيوفرون مالهم ورجالهم. فاذا اتفقوا على القسمة كما هو المنتظر في كل يوم ، وانفردت كل دولة بالنفوذ في ساحل من سواحل جزيرة العرب . فعلى الجزيرة والحجاز السلام ، لان حياتها المادية خرجت من أيدي اهل الاسلام . فمن كان لديه غيرة وقوة فليفكر في استعمالها لتلافي هذه الاخطار ، لا لتهديد طلاب الاصلاح في الولايات .

حرية المسلمين الدينية بمصر

لدعاة النصرانية (المبشرين) عدة مدارس ومستشفيات وصحف في مصر لاغرض لهم منها الا تنصير المسلمين ، وقد ساعدتهم الحكومة المصرية على إنشاء مدارسهم ومستشفياتهم باسم العلم وعمل الخير، ثم انهم ينشرون في كل سنة عدة كتب ورسائل في الطعن في القرآن والنبي عليه الصلاة والسلام ، وتنفير المسلمين من الاسلام . دع النشرات والأوراق الصغيرة التي يوزعونها في المستشفيات ، والخطب التي يلقونها فيها وفي سائر معاهد التبشير . وقد عز عليهم مع هذا ان يكون للمسلمين في هذا القطر الاسلامي كله صحيفة اسلامية واحدة ترد عليهم وتدافع عن الاسلام ، فسعوا بواسطة بعض قناصلهم الى لورد كتشنر ورغبوا اليه أن يأمر الحكومة المصرية بالغاء مجلة المنار وإبطال صدورها ، ومحاكمة صاحبها هو والدكتور صدقي الذي يساعده في الرد عليهم ! أليس من عجائب الغلو في تعصب القوم أن يسعى الى هذا أو يحدث به أو يفكر فيه بعض أبناء الأمتين الامريكية والانكليزية ، أعرق أمم الافرنج في احترام الحرية ؟

وقد سئلنا عما ينشر في المنار من الرد على النصارى فأجبنا: إننا أقدمنا على هذا العمل مدافعين لامهاجمين، وان هؤلاء المبشرين قد كتبوا في الطعن في ديننا اضعاف ما كتبنا ، وان هذا الرد واجب علينا شرعا بل هو من فرائض الكفاية اذا لم يقم به بعض المسلمين

أنم الجميع ، وانه يجب على المسلمين المحررة من البلاد التي ليس لهم حرية فيها في إظهار دينهم والدفاع عنه . وانا مع هذا نفضل ان يسكت هؤلاء المعتدون عنا ونسكت عنهم على أن مجالهم أوسع في الرد علينا ، لاننا نؤمن بنبيهم وكتابهم الذي أنزله الله عليه ونعد الطعن فيه كفراً كالطعن في نبينا بلا فرق . فلا نستطيع أن نقول كما يقولون ، ولا ان نخوض كما يخوضون

ألا انه لم يكن يظن أحد من الناس ان الحرية التي كانت مصر تفاخر فيها أوربة من كل وجه تتضاءل بعد لورد كرومر حتى يطمع الطامعون فيها بمثل ما ذكرنا ، وهي التي رفعت اسم انكلترة حتى صار جميع مسلمي الأرض يفضلونها على جميع دول أوربة ، ضعفت في مصر الحرية السياسية فخف على الناس المصاب فيها واحتج من أولئك الأحداث السفهاء ، فاذا اضطهدت الحرية الدينية فأي شيء يخفف على المسلمين مصابها ويعزيهم عنها ؟ على ان الذي ظهر لنا ان أولي الشأن قد اتقوا أولئك السعاة الخالين بأنهم هم المعتدون وانه يصدق على رد المنار عليهم « واحدة بواحدة — بل بثلاث — والبادي أظلم »

« مسألة الارمن وتعصب أوربة الديني »

لم تكد دولتنا تمضي عقد الصلح بينها وبين اليونان ، وتنفض يدها من حرب البلقان حتى فاجأتها الدولة الروسية بما ليس في الحسبان ، اذ اقترحت أن تكون الولايات الخمس التي يقيم فيها الارمن مستقلة في ادارتها يتولاها كلها حاكم أوروبي أو عثماني مسيحي تختاره الدول الكبرى ويعينه السلطان (كمتصرف لبنان بل نفوذ الدولة فيه أضعف) وأن تكون مجالسها العمومية نصفها من الارمن والنصف الآخر من غيرهم ! وفرنسة وانكلترة تؤيدان روسية في طلبها ! فليتأمل العاقل كيف يدخل التعصب الديني في أعمال أوربة وسياستها ! هذه الولايات فيها زهاء خمس ملايين من المسلمين وثلاثة أرباع المليون من الارمن ، وفيها كثير من اليهود أيضاً ، وتريد دول الانسانية والمدنية أن يكون نصف الاعضاء الذين يديرون أمرها من النصارى مع جعل الحاكم منهم . فان كانت المسألة دينية فما هو المرجح لدين النصارى ؟ وان كانت جنسية ففي تلك الولايات الترك والعرب والكرد واللاز والاسرائيليين فلم لم يكن لكل جنس أعضاء يمثلونه ؟؟

خاتمة السنة السادسة عشرة

نختم سنتنا السادسة عشرة بمثل ما افتتحناها به من حمد الله على كل حال، والصلاة والسلام على سيدنا محمد والصحب والآل، وقد وقع ما كنا في تلك الفاتحة نوقعناه، وظهرت بوادر ما كنا نخشاه، ولا حول ولا قوة الا بالله، ومالي وقد أنذرت وبينت الا أن أقول كما قال يعقوب نبي الله « إنما أشكو بثي وحزني الى الله، وأعلم من الله ما لا تعلمون »

ان غفلة هذه الامة عن نفسها، وعاريها بالنذر الخاصة بأمر هلاكها بزوال استقلالها، لم يدع لنا مجالا للتنبيه على تقصير المقصرين منها في حقوق المنار، والنسبة في ذلك بين الأصناف والاجناس والاقطار، كما كنا نفعل في خواتيم السنين بقصد الموعظة والاعتبار، وإنما يتعظ ويعتبر من لا يغفل أن قيامه بحقوق أبناء جنسه هو عين إقامته وحفظه لحقوق نفسه، «وماتغني الآيات والنذر عن قوم لا يعقلون»

الانتقاد على المنار

ندعو القراء على رأس كل سنة الى انتقاد ما يرونه منتقدا في المنار. ونذكر في خاتمة السنة جملة ما ورد علينا من الانتقاد، ونصرح بأننا لم نكن نعرفه من قبل، ولم ينتقد أحد علينا في هذه السنة شيئا الا ما كتبه من مقالات الدكتور محمد توفيق صدقي في الطعن في الاوربيين، أنكرها بعض الحكام قولا لا كتابة. وهي - وان كان مثلها لا ينكر في أوربة نفسها، وما كان ينكر في مصر قبل هذه الايام - ليست مما أرضى بمثلها للمنار ولو رأيتها قبل الطبع لاصلحتها. وقد طبع في هذه السنة عدة نبذ من ردّ الدكتور على الصاوي لم أرها قبل الطبع ولم أصحح فيها شيئاً، ولا عهدت اليه بتصحيح شيء منها، وقد جرى هذا خلاف عادتي لكثرة الشواغل.

وانتقد بعض أهل البحرين الاجابة عن أسئلة من سأل منهم عن حكم مناسك الحج، ولم ينكروا الاجابة نفسها. ووجه انكارهم ان السائل معترض على الاسلام لا مستفيد. واذا صح هذا تكون اجابته أولى كما سنوضحه في الجزء الآتي ان شاء الله تعالى

وقد منعت الحكومة العثمانية دخول المنار الى ولاياتها في أثناء هذه السنة ثم اذنت بدخوله فلهذا لم تصل بعض الاجزاء الى المشتركين في وقتها، ولمن لم يصل اليه شيء أن يطلبه وان فات الوقت المحدد في نظام الادارة لطلب الاجزاء المفقودة

ونسأل الله تعالى ان يوفقنا ويوفق أمتنا، لما يرفع مقته وغضبه عنا، فطوبى للمعتبرين المشمرين، وويل للغافلين المصرين، وسلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين.